التعامل مع النفس والناس

كما علمنا رسول الله

ﷺ

د. محمد أبو بكر حميد

ح دار طويق للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
حميد ، محمد أبو بكر
التعامل مع النفس والناس كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم./ محمد أبو بكر حميد. الرياض، ١٤٢٦هـ
٢٠٥ ص ؛ ٢٤ سم
ردمك: ٧-٣٥٥-٤٢-٩٩٦٠
١- الأخلاق الإسلامية أ. العنوان
ديوى ٢١٢،٢ ١٤٢٦/٦٦٢

رقم الإيداع: ١٤٢٦/٦٦٢
ردمك: ٧-٣٥٥-٤٢-٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

دار طويق للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٤٤٨ الرياض ١١٦٧٥
الإدارة العامة ت/ ٢٤٨٦٦٧٧ -٢٤٨٦٦٨٨ ف/ ٢٧٨٥٦٢٨

بريد إلكتروني E-mail: dartwaiq@zajil.net
موقعنا على الإنترنت www.dartwaiq.com.

المبيعات والتوزيع
الريـــاض : ت ٢٧٠٢٧١٩ ف ٢٧٠٢٧٢١
جـــدة : ج ٠٥٠٤١٨٠٤٥٣ ت + ف: ٦٥٢٣١٣٩
القصيـــم : ج ٠٥٠١٨٧٤١٩٢
الشرقيـــة / الشمالية/ الجنوبية: ج ٠٥٠٩٩٥٥٢٩١

تم الصف الإلكتروني والإخراج والتصحيح بدار طويق للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى روح الرجل الذي عاش حياته مهذِّباً لنفسه، متسامحاً مع من يؤذيه، محسناً لمن يسيء إليه، عذبَ اللسان، نقي السريرة، محباً للناس.

إلى روح صاحب السيرة العطرة التي تمنيت أن ألقاه لأنهل من حسن خلقه، وأتربى على صلاحه وبرِّه وتقواه.

إلى روح والدي

الذي أفنى حياته يتقرب إلى ربه باقتفاء سيرة نبيه ﷺ يتعلم منها، ويهتدي بهداها، ويعيشها بالقدوة الحسنة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أهدي هذا الكتاب

وأسأل الله أن يجعل مثل ما لي فيه من أجر مضاعفاً في حسناته، وغفراناً لسيئاته، وما أنا ببالغ ما يستحقه مني أب مثله.

المؤلف

مقدمة

عندما أصدرت كتابي «لهذا نحن مختلفون .. تأملات في سلوك المسلم المعاصر» لم أشعر بأنني قد استوفيت كل ما أريد أن أطرحه عن هذا الموضوع في ذلك الكتاب، وقد شجعني الاستحسان الذي لقيه على المضي في تأمل سلوك المسلم المعاصر، وهو تأمل لم يقم على دراسة نظرية فحسب، بل ينبثق من واقع معاناة التعامل في المجتمعات المسلمة المعاصرة، على مستوى الأفراد والجماعات.

فالمسلم المعاصر يعيش انفصاماً حقيقياً وخطيراً بين ما يتعلمه في دينه عن أمور حياته وبين ما يعيشه بالفعل في أسرته ومجتمعه، فأولادنا في المدارس يحفظون الأحاديث النبوية التي تحث على حسن الخلق والتسامح والحلم والإحسان وعلى التبسم والكلمة الطيبة وعلى الرفق واللين والصدق والإخلاص في القول والعمل؛ ولكنهم لا يجدون ذلك واقعاً معاشاً في مجتمعهم، بل يجدون أن بعض الذين يحرصون على شعائر هذا الدين ويتمسكون بعباداته لا يعيشون أخلاقه في معاملاتهم مع الناس.

وبرؤية واقعية نجد أن الحاجة الملحة للمجتمعات المسلمة اليوم ليست في الحض على أداء العبادات بقدر ما هي الحض على تطبيق السلوك والمعاملات الإسلامية في حياتهم اليومية، والربط بينهما وبين العبادات في دين جعل الله فيه الإنسان حسن الخلق في درجة الصوام القوام. لهذا كانت قوة المسلمين الحقيقية في أخلاقهم، وقد كان الانتصار

الأخلاقي هو العامل الأساسي على سيادة الحضارات، والقوة وحدها لا تكفي للانتصار.

ففي حضارات ما قبل الإسلام احتلت روما - بالقوة الغاشمة - أثينا الأكثر تحضراً الأضعف مادياً، فلم تستطع أن تقضي على الحضارة الإغريقية، بل تأثرت بها وبعلمائها وشعرائها وفلاسفتها، وسيطرت الحضارة الإغريقية ثقافياً على الحضارة الرومانية المادية، وانتصر المغلوب على الغالب، وأصبحت حضارة الرومان بعد ذلك إغريقية التأثير والتفكير.

وحدث هذا مع الإسلام، فالحضارة الإسلامية - بقوتها الروحية والأخلاقية - قضت على أكبر حضارتين ماديتين في زمنها وهزمت أكبر وأقوى إمبراطوريتين في العالم هما الفرس والروم.

ولو كان انتصار المسلمين بالسيف وحده لكانت الشعوب المفتوحة قد تراجعت عن الإسلام بعد زوال دولته وقوته، ولكنها بقيت على دينها إلى اليوم؛ لأن المسلمين فتحوا قلوب تلك الشعوب والأمم بالخلق الحسن والقدوة الحسنة فدخلت في دين الله أفواجاً لما رأته من صدق في سلوكهم ومعاملاتهم.

بهذا الخلق العظيم الذي وصف الله به نبينا محمد ﷺ بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ انتصرنا، ولـمَّا تركنا خلق نبينا محمد ﷺ وهدي ديننا الحنيف انهزمنا، ولن ننتصر في معركة صراع الحضارات إلا إذا عشنا الإسلام سلوكاً ومعاملات مع أنفسنا وفي البيت والشارع



والعمـل ومـع الأبـناء والأهـل والأقارب والجيران وأبناء الوطن الواحد وأبناء جلدتنا وكل البشر من مسلمين وغير مسلمين.

حـول الـتعامل مـع هـؤلاء جميعاً ومع أنفسنا تدور موضوعات هذا الكـتاب وفـق مـا أمـرنا الله به ووفق ما عَلَّمنا من جَعْل الله القرآن خُلقه محمد صلوات الله وسلامه عليه.

محمد أبو بكر حميد

ص ب ٢٢١٠٠٤ الرياض ١١٣١١

Hemaid ٢٠٠٠@hotmail.com







لماذا لا نعرف كيف نختلف؟!

لماذا يؤدي الخلاف مع الزوجة إلى «الطلاق» ومع المدير إلى «الفصل»، ومع الصديق إلى «القطيعة» أو «العداء»؟! لماذا لا نعرف كيف نختلف في عالمنا العربي والإسلامي على مستوى الأفراد أو الدول؟!

لماذا يتحول خلاف الرأي إلى عداء، وتنقلب المحاسن إلى عيوب، ولا نترك نقيصة إلا ونلصقها بمن اختلفنا معه إن لم تكفنا عيوبه التي نقوم بإحصائها، وقد كنا من قبل نثني عليه ونعدد محاسنه؟!

لماذا تضيق صدورنا بالنقد، وكأننا قد بلغنا الكمال، ولا نستطيع تقبل النصح برحابة صدر، وإن تظاهرنا بذلك، ورأينا في أنفسنا خلقاً لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه؟!

يجب ألا نعجب عندما نجد أن مجتمعنا العربي والإسلامي يحتوي على أكبر عدد من المنافقين في العالم!!

إن الحقيقة كاملة مؤلمة، وأفضلنا الذي يتجرع نصف الحقيقة كما يتجرع العلقم، فعلى مستوى الأسرة لا تستطيع «الزوجة» أن تعبر عن رأي يختلف مع «رب الأسرة»، وقد ينشب خلاف قد يؤدي إلى الطلاق؛ لأن بعض الأزواج يعتقدون أن إدلاء الزوجة برأي يختلف مع آرائهم إساءة بالغة لرجولتهم وعظمتهم، والابن ينشأ لا





يعرف كيف يعبر عن رأيه ويشرح وجهة نظره؛ لأن الأب أو المدرس لا يسمح له بذلك لأن ذلك في نظرهم «قلة أدب»! وإذا تجرأ تعرض للضـرب أو الإهانة، والموظف يخاف أن يبوح بـ«الحق» لرئيسه ويتفق دائما معه في الرأي خوفاً من أن يخسر وظيفته!.

أمـا عـلى مسـتوى الصداقة والعلاقات الاجتماعية فكل الذين يختلفون معنا في الرأي أو الذوق فسرعان ما نخسرهم ونستبعدهم من قائمـة الأصـدقاء أو نحولهـم مباشـرة إلى أعـداء، ونكيل لهم بدلاً من الصـاع صـاعين، ومـا أكـثر مـا نخسر من الأهل والأقارب والأباعد لأسباب لها صلة بالرأي الآخر.

أمـا الـدول فحـدث ولا حرج، فسرعان ما يتحول الخلاف إلى قطع علاقات دبلوماسية، وحرب إعلامية كلامية قد تتطور إلى حرب بالسـلاح، ومؤامـرات واغتـيالات وسـفك دماء، وما أكثر ما حدث هذا في تاريخنا العربي الحديث !

والدلـيل عـلى أنـنا بـالفعل لا نعـرف كيف نختلف ما نجده في السـاحة الفكـرية والثقافـية عموماً عندما ينشب خلاف في الرأي بين مـن نسـميهم بالمثقفين، نجـد الخـلاف يخرج عن مساره ويتحول من مناقشـة قضـية الخـلاف إلى قـذف شخصـي وسـباب واسـتعراض للعضلات المعلوماتية ونيل من الآخر وتعريته بكل الطرق.

وأتمـنى أن يـدرس أحـد طلابـنا في الجامعـات تـاريخ المعـارك







الأدبية أو الثقافية التي شهدتها الصحافة العربية في مختلف البلاد العربية، فإنه سيجد أن معظمها يتكئ على النيل أخلاقيا وعلمياً وشخصياً من الطرف الآخر أكثر من اتكائه على الموضوعية والإنصاف والعدل.

ورغم أننا «مسلمون» منذ خمسة عشر قرناً إلا أننا لا نزال «متعصبون» نمارس عصبيتنا على مستويات مختلفة - لعل العصبية القبلية أخف أنواعها - فأخطر أنواع العصبية اليوم هي «العصبية الفكرية والثقافية والمذهبية»، فنحن نتعصب لهذا العالم أو لذلك المفكر، ونمدح ذاك الشاعر أو الكاتب - دون غيرهم - وكأنهم قد نزلوا أطهاراً من السماء لا يخطئون، فنجعلهم فوق مستوى النقد، والويل والثبور وعظائم الأمور لمن يبدي فيهم رأياً، أو يقدم لهم نصحاً، فسرعان ما يتعاوره محبو هذا الشيخ أو الشاعر أو الكاتب بسيوفهم البتارة وكلماتهم الحادة وهجماتهم اللاذعة وكأنه قد مس آية من كتاب الله أو كفر، والصحف اليومية تشهد بالكثير من هذا النوع من المعارك العصبية، بالرغم من قول رسولنا الكريم ﷺ: «**ليس منا من دعا إلى عصبية**» [رواه أبو داود].

يعجب المرء لهذا كله أن يكون اليوم في أمة قال نبيها ﷺ : «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**» [رواه أحمد] بمعنى أن الأخلاق الكريمة

أصيلة فيها وليست مكتسبة بعد الإسلام، وإنما جاء الإسلام ليهذب هذه الأخلاق، ويضيف إليها ويرتقي بها، فكان الرسول ﷺ نموذجاً لخلق الإنسان العربي قبل البعثة، ونموذجاً لخلق الإنسان المسلم بعد البعثة، لهذا قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب:٢١)

فكان ﷺ من أوسع الناس صدراً لمن يختلف معه، وأحلمهم على من يثير غضبه، وكان أكثر خَلْق الله تسامحاً مع من يسيء إليه، وأعفّهم لساناً، وألينهم قولاً، وأقلهم جدلاً. ما غضب يوما قط لنفسه، أو استكبر أن يختلف معه أحد من المسلمين أو المشركين وهو رسول الله يوحى إليه من السماء!

ومع ذلك فقد عاتبه ربه في بعض المواقف ليعلمه ويتعلم من بعده قومه، لهذا كان «القرآن» أعظم كتاب يشتمل على أسس التربية وقواعد السلوك وآداب المعاملات من خلال توجيهات رب العالمين لنبيه ﷺ ، فهناك الأمر بالعدل مع الآخر سواء كان عدواً أو صديقاً، وأن عيوب الآخر يجب ألا تحول بيننا وبين إنصافه ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾ (المائدة:٨).



ويحدد القرآن الكريم «استراتيجية» الحوار في خطاب الله لنبيه حين نهاه عن الضيق بما يسمع من الطرف الآخر: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ



يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (الحجر: ٩٧). وحدد له أسلوب الرد عليهم. ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت:٣٤) ثم يقرر أحكم الحاكمين نتيجة مخالفة تلك «الاستراتيجية» فيقول لنبيه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران:١٥٩) وقد وقفت طويلاً أمام هذه الآية متأملاً حكمة رب العالمين لأن فيها «فرضية» التعامل مع الناس بغلظة، وفيها «نتيجة» وهي خسرانهم وفيها «أمر» هو العفو عنهم إن أخطؤوا واحتمالهم الاستغفار لهم إن أذنبوا.

ولا يتوقف التوجيه الرباني عند هذا الحد، بل عليه أن يشاورهم وأن يستمع إلى رأيهم إن أراد أن يتخذ قراراً، فكونه نبياً لا يخوله أن يتخذ قراراً دونهم إلا إذا كان الأمر مباشراً من رب العالمين، ثم تأتي النهاية «نتيجة» أخرى لمسألة الشورى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩).

والحقيقة أننا إذا عدنا لكتابنا المنزل من رب العالمين سنجده

الكتاب الوحيد في هذا الكون الذي حفظ لأعدائه كلامهم ضده وافتراءهم عليه دون تحريف أو تبديل أو تخفيف ثم رد عليهم بموضوعية، فتاريخ الحوار والجدال الذي دار بين الأنبياء والذين كفروا بهم من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ وتوجيهات رب العالمين لهؤلاء الأنبياء من أساليب التعامل وإدارة الحوار مدونة جميعها في القرآن الكريم الذي يتلوه المسلمون ليل نهار، فنحن نقرأ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ (البقرة:١١١). ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ (البقرة:١١٦) ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ﴾ (البقرة:٢٤٧) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ (آل عمران:١٨١) وغيرها من عشرات الآيات التي تسجل بإنصاف «الرأي الآخر»، والحوار مع اليهود والنصارى ثم كفار قريش والمنافقين بشكل يسقط كل دعاوى الذين يزعمون أن الديمقراطية وحرية الرأي وأدب الحوار مع الآخر بدأ في الغرب ولا يوجد إلا في الغرب!



إن أمة نبيها محمد ﷺ الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، ولها هذا التاريخ العريق في مكارم الأخلاق، واحترام الرأي الآخر، وبين يديها هذا الكتاب السماوي الخالد الذي حوى كل خير الدنيا

والآخـرة الأولى بها أن تكون قدوة الأمم في أدب الحوار والاختلاف واحـترام الآخـر والـتعامل بإنصـاف حـتى مـع العدو لنستحق عن جـدارة قولـــه تعـالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣).







مداراة الناس فن يمكن إتقانه

التعامل مع الناس من قديم الزمن من أصعب الأمور، لكنه في هذا الزمن أصبح أكثر صعوبةً وأكثر تعقيداً. لقد أصبح من السهل جداً أن تخسر إنساناً بكلمة أو في لحظة توتر أو موقف جدال، في حين أن كسب الناس لم يعد هيناً على الإطلاق، إذا كسبنا أناساً يجب ألا نفرط فيهم بسهولة لأنه سيكون من الصعب استعادتهم أو إيجاد بدائل لهم.

ومداراة الناس واجبة للمحافظة عليهم .. والمداراة لا تعني المراءاة كما قد يظن البعض، فالفرق بين الكلمتين كبير.. المراءاة يدخل فيها الكذب والنفاق والخداع، أما المداراة فهي حسن التعامل مع الناس ومسايرتهم بالحُسنى لتجنب الاصطدام بهم.. فلا شيء أغلى من كسب الإنسان وبالتالي تهون الصغائر من أجل الاحتفاظ بحبه أو مودته أو ولائه.




والتعامل مع الناس سياسة من معنى «يسوس» وليس من معنى «يكذب» لهذا فإن السياسة هي فن التعامل مع الناس والدول علماً بأن التعامل مع الدول أسهل من التعامل مع الناس؛ لأنك في التعامل مع الدول تبرم اتفاقات ومواثيق لا يمكن الإخلال بها إلا في حالات الغدر والاعتداء، وهذه حالات نادرة، أما في التعامل مع



الناس فإنك لا تستطيع إبرام اتفاقات صداقة ومحبة وإخلاص وحسن نية وتسامح مكتوبة على الورق وبشهود!

والتعامل مع الناس دبلوماسية، والدبلوماسية هي السياسة التوفيقية وإصلاح ذات البين باللين ورأب الصدع بالمداراة، أما الدبلوماسية فن تجنب الاصطدام بالآخر بكل الوسائل الممكنة، ومحاولة كسبه أو الوصول معه إلى حل وسط دون خسارته.. والدبلوماسية أيضاً هي (شعرة معاوية) إذا ما بقيت بين طرفين تستوجب من الطرف الأكثر حكمةً وحرصاً ألا يشدها وإذا شدها الطرف الآخر عليه أن يرخي حتى لا تنقطع.

والعلاقات بين الناس كما هي بين الدول تنقطع بسبب الشد الذي يسببه التوتر والإصرار والعناد في الحوار؛ لأن الحوار إذا سيطرت عليه أجواء التوتر والإصرار والعناد تحول إلى جدل، والجدل يعني أن كل طرف يدور حول نفسه ويصر على رأيه ويحاول أن يفرضه على الآخر لأنه يعتقد أنه على حق، وإذا حدث هذا بين صديق وصديقه أو موظف وزميله أو زوج وزوجته أو بين إنسان وآخر أو حتى بين دولتين فإنه يؤدي إلى ما لا تُحمد عقباه.

في هذا النوع من الاشتباكات..اشتباك الجدال يتدخل أعظم إنسان سار على الأرض إلى اليوم، محمد رسول الله ﷺ لفض هذا الاشتباك محذراً من خطره معلناً أعظم جائزة يحلم بها مخلوق لمن

يبادر بإيقاف هذا الجدال، فيقول: «**أنا زعيم بيت في رَبَضِ الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً**» [رواه أبو داود].

يتعهد رسول الله ببيت في أطراف الجنة لا لمن يترك الجدال وهو مخطئ، لأن البديهي أن يترك المخطئ الجدال، ولكن لمن يترك الجدال وهو محق، وهذا من أصعب وأشق الأمور على الإنسان أن يترك الجدال وهو يعرف أنه على حق وغيره على خطأ، وفي هذا الموقف يعلمنا رسول الله ﷺ أكثر من درس..

أولاً: أن الانتصار على النفس الراغبة في الانتصار على الغير ولو بالحق.

ثانياً: يجب أن ننصر فكرة الحق بالرفق واللين، لا بالجدل أو العنف؛ لأن الجدل يؤدي إلى استخدام القوة في سبيل الانتصار للرأي.

ثالثاً: أننا إذا لم نكسب الناس بالحوار المقنع والمداراة فإننا يجب ألا نخسرهم لأننا إذا خسرناهم فلن نستطيع التحاور معهم، وبالتالي نكون قد قطعنا عنهم طريق الخير الذي نريده لهم.

الحقيقة أنه ليس هناك أجمل ولا أعظم من كسب الناس ومداراتهم والتعامل معهم بالحسنى واللين وعلى قدر عقولهم، فالمؤمن لين هين لكنه فطن، وقد شبهه رسول الله ﷺ بالنحلة (.. لا تضع إلا طيباً، وإن وقعت على عودٍ لم تكسره ولم تخدشه).

المسافة بين عبادتنا وسلوكنا

لا يزال كثير من المسلمين يجهلون الحكمة من العبادة في الإسلام، ويجهلون الحقيقة التي يجب أن تفضي إليها في أنفسهم، والترجمة التي يجب أن تتمثل في حياتهم وسلوكهم من أثر الأداء الصادق والمخلص لهذه العبادات.

يؤدي كثير من المسلمين جميع عباداتهم على أكمل وجه، فلدينا المسلم الذي يحرص على الفرائض في المسجد جماعة، ويؤدي النوافل ويعتمر ويحج مراراً وتكراراً، ومع ذلك نجد أن هذه العبادات لا تنعكس على سلوك بعض هذا النوع من المسلمين ولا تثمر فيهم، فقد تجده سيئ الخلق غير صبور، سيئ الظن بالناس، غضوب لا يعرف الحلم والتسامح، وقد يذهب هذا النوع من المسلمين إلى الحج وفي ذمته للناس حقوق مادية ومعنوية فلا يفكر في أدائها ظناً منه أن الله سيغفر له كل ذلك.





وإذا كثر في عالمنا الإسلامي هذا النوع من الناس فالعيب ليس في العبادات، وإنما في الناس الذين لم يستطيعوا الربط بين العبادة والسلوك، ولم يترجموا هذه العبادة إلى سلوك، فالرسول ﷺ حذر من هذا الأمر الخطير، وربط بين الصلاة والبعد عن الفواحش والمنكرات



فقال ﷺ : **(من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً)** [رواه البراء عن ابن عباس].

إن من يتأمل عشرات الآيات والأحاديث سيجد مدى ارتباط صفاء العقيدة وقوة الإيمان بالأخلاق والسلوك والمعاملات، فقد ربط الله تعالى أعلى درجات الإيمان وهي التقوى بالعدل، والعدل سلوك ومعاملة في قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ** ﴾ (المائدة:٨).

وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : **(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)** [رواه الترمذي] وقال ﷺ : **(ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق)** [رواه البخاري في الأدب المفرد].





وقد فهم الصحابة معنى ترجمة العبادة إلى سلوك فحرصوا على حسن الخلق مع الناس، عن أم الدرداء قالت: قام أبو الدرداء ليلة يصلي، فجعل يبكي، ويقول: (اللهم كما أحسنت خَلْقي فحسِّن خُلُقي) حتى أصبح فقلت: يا أبا الدرداء ما كان دعاؤك إلا في حسن الخلق، فقال: يا أم الدرداء إن العبد المسلم يحسن خلقه حتى يدخله حسن خلقه الجنة ويسيء خلقه حتى يدخله سوء خلقه النار) [البخاري في الأدب المفرد].



لا يكفـي المسـلم ليتقـبل الله صـلاته أن يكـون محافظـاً علـيها خاشـعاً فـيها ثم يخرج يدوس على الناس بأطراف أصابعه من الكبر أو مؤذيـاً قاسـياً لايـرحم ولايلـين وقـد كـان قـبل دقـائق في منتهى الخشـوع والخضوع طالباً رحمة الله. يقول الله تعالى في حديثه القدسي لأمـثال هذا المسلم الفظ: **(إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خلقي، ولم يبت مصراً على معصيتي، وقطع نهاره في ذكـرى، ورحـم المسـكين، وابـن السبيل، والأرملة، ورحم المصاب، ذلـك نوره كنور الشمس، أكلؤه بعزتي، وأستحفظه بملائكتي، أجعل لـه في الظـلمة نـوراً، وفي الجهالـة حـلماً، ومـثله في خلقـي كمـثل الفردوس في الجنة)**.

وهكـذا تكـون الصـلاة خلقـاً وسلوكاً ومعاملة لا تنتهي بنهاية أدائها وإنما تبدأ بسريان مفعولها في حياة المسلم.





والصـوم أيضـاً عـبادة سـلوكية أكـثر مـنها امتـناعاً من الطعام والشـراب، فهذا رسول الله ﷺ يحذر **(من لم يدع قول الزور والعمل بـه، فلـيس لله حاجـة أن يدع طعامه وشرابه)** [رواه أبو داود] والصوم كمـا عـرفه ﷺ تدريـب للمسـلم عـلى الالـتزام بـأدب السـلوك والمعاملات مع الناس، وذلك في قولـه: **(الصوم جنة إذا كان أحدكم**



صائماً، فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه، فليقل إني صائم إني صائم) [رواه أبو داود].

وإذا كان رمضان مدرسة الثلاثين يوماً في التعود على ضبط السلوك مع الناس، فإن الحج هو الامتحان النهائي الكبير في جامعة الإسلام، فلا يقوم عليه إلا من اجتاز اختبارات الالتزام عقيدة وسلوكاً في الصلاة والصيام وغيرهما من العبادات ليستطيع الوفاء بمتطلبات هذه الشعيرة العظيمة ﴿**فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ**﴾ (البقرة:١٩٧).

والنتيجة والجائزة في هذا الامتحان السلوكي الكبير أعلنها رسول الله ﷺ للمسلمين في أكثر من حديث فقال **(من حج فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كما ولدته أمه)** [رواه مسلم] أي أن يغفر لك كل ماتقدم من ذنبك شريطة ألا تكون حاملاً معك حقوقاً مادية أو معنوية لمسلم لم تؤدها. والجزاء العظيم يعلنه رسول الله: **(الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)** [متفق عليه].

وهذا الدين لا يزرع اليأس في النفوس، فهو دين الأمل والتفاؤل والنفس الطويل، فهذا رسول الله ﷺ يبشر المقصرين






والمذنبين والحريصين على الغفران **(العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما)** [متفق عليه].

ومع ذلك فإن بعض المسلمين من أصحاب العبادات لا يعتدل سلوكهم بصلاة ولا صيام أو زكاة أو حتى حج ويصرون على الإفلاس بالمعنى الذي حدده رسول الله ﷺ للمفلس حين قال: **(إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار)** [رواه مسلم] .

وبهذا يقود الإفلاس الخلقي والسلوكي عند المسلم إلى محصلة صفر في حصيلة العمر الإيمانية.





يروي أبو هريرة - رضي الله عنه - **قال رجل: يا رسول الله: إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال رسول الله: هي في النار. وقال إن فلانة يُذكر من قلة صيامها، وصلاتها إلا أنها تتصدق ولا تؤذي جيرانها فقال رسول الله: هي في الجنة.** [رواه أحمد].



وهذا درس بليغ للمسلمين الذين يتكلون على عباداتهم وحدها ويظنون أنها ستدخلهم الجنة دون الالتزام بما تهدي إليه من

سلوك وحسن خلق مع الناس لا يغفره الله سبحانه وتعالى بصلاة أو صيام أو زكاة أو حج، فأداء العبادات في الإسلام مهما أكثر منها الإنسان لا تسقط حقوق الغير المعنوية والمادية، ولم يعط الله وهو أعدل الحاكمين لنفسه الحق في ذلك إلا إذا عفا صاحب الحق، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.






كيف نحترم أنفسنا ونمارس حريتنا؟

يقول شخص لآخر في موقف معين «احترم نفسك»، ويقول الناس عن شخص أنه «إنسان يحترم نفسه».

ويستخدم أكثر الناس عبارة «احترم نفسك» في مواقف معينة لتؤدي غرضها، ولكن لا يدرك بعضهم أبعاد المعاني العميقة التي تحملها.

فما الفرق بين احترام النفس واحترام الآخرين؟

ولماذا لا نقول للآخر «احترمنا» بدلاً من أن نقول له «احترم نفسك؟».

والحقيقة أن احترام النفس هو الأساس، وما احترام الآخرين إلا نتيجة طبيعية لاحترام النفس، فالذي يحترم نفسه يعرف حدوده في كل شيء فيتوقف عندها ولا يتجاوزها إلى حدود الآخرين، لهذا فإن الذي يتجاوز حدوده معك ويقول: «أنا حر» ليس حراً، لأن حريته تنتهي عند حدودك فإذا اقتحمها لم يعد حراً وإنما أصبح معتدياً، وهذا هو الفرق بين الحرية والعدوان. لا يوجد إنسان حر بالمعنى الذي لا يعرف الحدود، والحرية إطارها احترام النفس بمعنى احترام الحدود وعدم تجاوزها إلى الغير.

فما دمت صادقاً مع نفسك قائماً بواجباتك في كل اتجاه، معطياً لكل ذي حق حقه، لا تظلم، لا تغش، لا تكذب، لا تَنُم، لا تحقد، لا تغدر، لا تمكر، لا تخون، لا تعتدي، عادلاً، أميناً، مخلصاً، وفياً، فثق تماما أنك إنسان حر مكتمل الحرية ولن تنقص حريتك إلا عندما يحدث خلل في إحدى هذه الصفات، وعندما يحدث هذا الخلل معناه أنك تجاوزت حدود حريتك واعتديت على الآخرين، لأن في عدم الأمانة أو عدم العدل كما في الكذب والحقد والغدر إضراراً بالغير، وعندما تضر بالغير فإنك - في أعماقك - تفقد التوازن، وتفقد السلام في داخلك ويبدأ ضميرك يشعر بالذنب، وبالتالي تفقد احترامك لنفسك وتفقد حريتك، وينتج عن ذلك كله عدم احترام الآخرين لك لأنك تصبح في نظرهم متهماً وناقصاً بسبب الصفات التي فرطت فيها.

والمقصود باحترام الناس هنا ليس الاحترام الظاهري الذي يحصل عليه المرء بسبب الجاه أو السلطة، وإنما المقصود هو ما يتركه سلوك الفرد وأعماله من أثر في نفوس الآخرين على شكل محبة ومودة وتقدير ينعكس على موقفهم منك بينهم وبين أنفسهم وأمام الغير.

هذه حدود العلاقة بين احترام الإنسان لنفسه واحترامه للآخرين ومعرفته بحدود حريته. فالإنسان حر ما دام يحترم نفسه

ويعرف حدوده مع الآخرين.

وقد وضع الإسلام ثوابت أخلاقية وسلوكية إذا ما عمل بها الإنسان ارتقى إلى أعلى مستويات التحضر، ولن يتحقق ذلك إلا بالعمل بأساس دستور المعاملات بين الناس في الإسلام المتمثل في أقوال أحسن الناس أخلاقا محمد ﷺ، منها قوله :«**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**» [رواه البخاري] ، «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**» [رواه الترمذي وابن ماجه]، «**لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم**» [رواه أحمد]، «**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء**» [رواه البخاري في الأدب المفرد] «**رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى**» [رواه البخاري]، «**من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا**» [رواه مسلم]، «**المؤمن مرآة أخيه، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه**» [رواه البخاري في الأدب المفرد]، «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» [متفق عليه]، «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**» [رواه الترمذي]، «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً**» [متفق عليه]، «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**» [رواه الترمذي]، «**امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين**» [رواه أحمد]، «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**» [رواه مسلم].

أحاديـث نـبوية ومبادئ أخلاقية إسلامية تعد بالعشرات تصب جمـيعاً في دائـرة الـتعامل بين الناس، تضع لـه القواعد المثلى وتنظمه وتخـط لــه حـدوده، فمـن عمـل بهـذه القواعد وجعلها نظام حياته وعـرف مع نفسه ومع الناس حدوده أصبح أوسع خَلق الله حرية في هـذا الكون، وأكثرهم احتراما لنفسه، فيظفر باحترام من الناس ليس له حدود.







لكي نكون من المحسنين حقاً

الإحسان ليس عطاءً مادياً فقط كما يتبادر إلى أذهان الكثيرين، والمحسن ليس ذلك الذي يبذل ماله صدقةً أو زكاةً أو كرماً. قد يكون هذا السلوك جزءاً من الإحسان وقد لا يكون إحساناً على الإطلاق إذا رافقه غرور أو كبر أو تبعه أذى.

غاب عن كثير من المسلمين أن أجمل وجوه الإحسان في الإسلام كلمة طيِّبة تترجم إلى سلوك ومعاملات هي عند الله أفضل من بذل المال. ألم يقل سبحانه وتعالى في كتابه المحكم ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى** ﴾ [البقرة:٢٦٣]؟ ألم يأمر بالإحسان كلمةً بقوله: ﴿ **وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ [البقرة:٨٣]؟!



والمتصدق بماله وحده لا يعد متصدقاً بالمعنى السلوكي الذي يرتفع به لمرتبة الإحسان إذا لم يتبع ذلك بترجمة حقيقية للصدقة في سلوك حدده رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو ذر **(التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتُسمع الأصم وتهدي الأعمى وتدل المستدل عن حاجته، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف.. وتبسُّمك في وجه أخيك.. وإماطتك الحجر والشوكة والعظم من طريق الناس...، وهديك الرجل في الأرض الضالة...)** [رواه أحمد في المسند بلفظ نحو هذا].



هـذا هـو دستور سلوك المسلم في حركته اليومية يجعل كل فعل مـن ذلـك يؤديـه خالصـاً لوجـه الله صدقة تدفعه إلى درجة المحسنين الذيـن يترجمـون عقـيدتهم إلى سلوك ومعاملات دون أن يطلب أحد منهم ذلك أو يمد لهم يداً.

وهـنا يـرتفع المسلم إلى المعنى الحقيقي للإحسان وهو «الإتقان» في كـل فعل أو عمل يؤديه. يقول رسول الله ﷺ: **(إذا عمل ابن آدم عملاً فليتقنه)**.

والإتقـان هـو العمـل بـإخلاص ولا يمكـن أن يـتقن عمله إلا المؤمـن بجـدوى هـذا العمـل. وكل مسلم يترجم إيمانه إلى سلوك هو إنسـان يـؤدي عملاً له جدوى لأن ذلك كله يصب في خدمة المجتمع الذي هو جزء منه.

ولا يكـون الإنسـان محسـناً إلا إذا اكتملت فيه معاني الإحسان كلها لا معنى واحد منها. فالإحسان هو الإتقان في العمل والإحسان هـو الرحمة والإحسان هو الكلمة الطيِّبة، والإحسان هو حسن الخلق والإحسان أيضاً بذل المال للمستحق دون منٍّ أو أذى.

ويـرتفع معـنى الإحسـان في الإسـلام إلى منـتهى الرقة والرحمة والرفق، حيث يقول رسول الله ﷺ: **(إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته)**.

الـرفق والـرقة حتى بالبهيمة لا يريدها هذا الدين أن تتألم وهي تذبـح وذبحها مباح، فكيف بالإنسان وترويعه وتعذيبه وقتله حرام؟! فـأين الذيـن يمارسـون هـذا الديـن بقسـوة وغلظة وقلوب لا تعرف الرحمة أو اللين، أين هم من هذا الحديث العظيم؟!

(إن الله كتب الإحسان على كل شيء).

بمعـنى أن يكون الإحسان في حياة المسلم كلها بكل تلك المعاني العظـيمة الـتي تجعل الإحسان سلوكاً وحياة، لهذا جعل الله الإحسان ذروة سـنام الإيمـان، فالمحسن أفضل من المؤمن، كما أن المؤمن أفضل مـن المسـلم. وقـد ميَّز الله بـين المسلم والمؤمن بقوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْـرَابُ آمَـنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ (الحجرات ١٤).

أما الإحسان فهو أن تصل بإيمانك إلى درجة **(أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك).**

وإذا استشـعر المؤمن هذه الحقيقة.. حقيقة أن الله يراه فسيترجم إيمانـه إلى عمل وإلى سلوك فيه إتقان وإخلاص ورحمة ومحبة وتواضع وعطـاء وإخـاء تنهض به هذه الأمة المسلمة من كبوتها، فننتصر على شـرور أنفسـنا ثم على أعدائنا، ﴿**إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾، وهذا وعد من الله والله لا يخلف وعده.

الخيار الصعب بين الأنفع والأجمل

يشكو أفاضل هذا الزمن من قلة المروءة في الناس ويشكون من عصر سادت فيه الأنانية وحب الذات، وغلب فيه الطمع والجشع على أجمل الصفات، عصر تكالب فيه الناس على المادة فأصبحوا أسرى لها، وأسرفوا في الشهوات فذبحوا على نحرها أغلى القيم، وباعوا أعظم الفضائل فضاعت المروءة في الجميع، وقد سئل أحد الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة؟ فقال: العقل يأمر بالأنفع أي بما فيه مصلحتك الشخصية، والمروءة تأمر بالأجمل، والجمال قيمة خلقية تخدم الناس .. المروءة تضفي الجمال على الجميع، ذلك لأن الجمال قيمة من قيم الخير بتقرير الشرع وعرف الناس، وإذا لم يكن الخير جمالاً فياليت صنيعي ما يمكن أن يكون؟!

ومع ذلك فقد اضطرب معنى المروءة بين الناس وغاض ماؤها حتى انحصر على معنى واحد من معانيها هو الوفاء، حين يقول الناس فلان قليل المروءة يعنون أنه قليل «الوفاء». ولما تأملت في السر الذي دفع الناس لحصر معنى المروءة في الوفاء وجدت أن الوفاء هو أهم قيمة خلقية جميلة يفتقر إليها كثير من أهل هذا الزمن، وقد وقفت طويلاً أمام معنى الجمال في تعريف شامل للمروءة لأبي الحسن الماوردي يقول فيه : «المروءة حلية النفوس وزينة الهمم

ومراعاة الأحوال إلى أن تكون على أفضلها، حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجه إليها ذم باستحقاق».

وهي بهذا التعريف - بلا شك - قيمة من أعلى قيم الخلق الجميل حين تكون المراعاة ذروة سنامها، مراعاة الذات في نوازع الهوى والأنانية، ومكابدة النفس في سبيل الارتقاء بها إلى الأجمل من طرائقها.

ولعل أجمل الطرائق المقصودة، وأجمل الأخلاق في التعامل مع الناس بمراعاة أحوالهم فلا نحملهم أكثر مما يطيقون، ولا نفترضهم ملائكة لا يخطؤون، أي أننا لا نستطيع أن نجعل الناس جميعاً سواء، لأنهم قدرات مختلفة، وهم ليسوا قماشاً نفصله كما نريد لأنفسنا، فهكذا خلقهم الله، وعلينا أن نتعامل معهم من هذا المنطلق، فنتعامل مع أجمل ما فيهم، ونثني عليه، ونغض الطرف عن أسوأ ما فيهم وننصرف عنه، والأولى أن نعالجه بحكمة.

يقول الشاعر:

إذا بغى باغٍ عليك بجهله　　فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

ومن قصص المروءة في الستر على المسيء وحفظ ماء الوجه واحتمال الأذى بالكرم والتسامح ما حُكِيَ أن رجلاً زَوَّرَ ورقةً عن خطِّ أحد ولاة المسلمين يأمر فيها بصرف ألف دينار له، وبينما

الوكيل يَزِنْ له الألفَ دينار، وإذا بالوالي قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمرٍ مهمٍ. فلمَّا جلسَ أخبره الوكيل بأمرِ الرجل، وأوقفه على الورقة فنظرَ الوالي فيها، ثم نظر في وجه الرجل فرآه كادَ يموتُ من الوجَلِ والخجل، فأطرق الوالي الحكيم بوجهه ثم قال للوكيل: أتدري لم أتيْتك في هذا الوقت؟ قال: لا، قال: جِئْتُ لاستنهضَك حتى تعجِّلَ لهذا الرجل إعطاءَ المبلغ الذي في هذه الورقة. فأسرعَ عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوَلَهُ الرجل فقبضَه وصار متحيراً في أمره. فالتفتَ إليه الوالي وقال له: طِبْ نفساً، وامضِ إلى سبيلك آمناً على نفسِك فقبَّلَ الرجلُ يدَهُ وقال له: سترتَنِي ستَرَكَ اللهُ في الدنيا والآخرة، ثمَّ أخذ المالَ ومضى.




يقول الماوردي «من حقوق المروءة وشروطها ما لا يتوصل إليه إلا بالمعاناة، ولا يتوقف عليه إلا بالتفقد والمراعاة، فليس ينقاد لها مع ثقل كلفتها إلا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد وهانت عليه الملاذ صدراً من الذم» لذلك قيل: سيد القوم أشقاهم وقال أبو تمام:

والحمد شهد لا يرى مشتاره يجنيه إلا من نقيع الحنظل

غل لحامله.. ويحسبه الذي لم يود عاتقه.. خفيف المحمل



قبل أن تفكر في الانتقام ..

ليس أشق على النفس من الاعتراف بالخطأ والصبر على الأذى، والتسامح مع المسيء، لهذا جعل الله تعالى هذا النوع من البشر الذين يقودون أنفسهم ولا تقودهم أنفسهم في أعلى مراتب الإيمان. وقد عدد الله سبحانه وتعالى وصفهم في عشرات الآيات فهم ﴿ **ٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾ وهم ﴿ **وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ** ﴾ وهم ﴿ **ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا** ﴾ وهم ﴿ **ٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ** ﴾ إنهم الذين يدفعون بالتي هي أحسن، ويدرؤون بالحسنة السيئة لينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾.

لهذا قال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**» [رواه الترمذي] وقال ﷺ: «**إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا، وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة**» [ذكره السيوطي في الجامع وضعف الألباني سنده] وقال «**من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن**» [رواه أحمد] وقال «**لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه**» [ذكره العراقي في تخريج الإحياء بسند ضعيف]، وقال: «**لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً**» [رواه أبو داود]، وقال: «**إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة**

فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره يكرهه» [ذكره العراقي في تخريج الإحياء بسند ضعيف].

وقد أجمع العلماء على أن آية حسن الخلق الصبر على الأذى واحتماله، فقد روي **أن رسول الله ﷺ كان يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية، قال أنس رضي الله عنه: حتى نظرت إلى عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيه حاشية البردة من شدة جذبه. وقال له الأعرابي: يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك ثم أمر بإعطائه»**. فلم يغضب رسول الله ﷺ لنفسه ولم ينهره أو يطرده من حوله وإنما احتمل أذاه بحلم وكسب وده. وورد أن النبي ﷺ حكى خبر نبي من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» [رواه البخاري].

وقد سار تلاميذ محمد ﷺ على نهج هذا الخلق العظيم، وتبعهم فيه رجال قدوات من تابعين ضربوا أروع الأمثلة في الصبر على الأذى، فيحكى أن إبراهيم بن أدهم خرج يوماً إلى إحدى البراري فاستقبله رجل جندي فقال: أنت عبد؟ قال ابن أدهم: نعم. قال الجندي: أين العمران؟ فأشار ابن أدهم إلى المقبرة. قال الجندي: إنما أردت العمران. قال ابن أدهم: هو المقبرة. فغاظه ذلك فضرب ابن أدهم: ثم عرف الجندي أن هذا الذي ضربه هو الزاهد العظيم

إبراهيم بن أدهم فنزل عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه. فقيل لابن أدهم بعد ذلك: لم قلت له أنك عبد؟ فقال: إنه لم يسألني عبد من أنت بل قال: أنت عبد؟ قلت: نعم. فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة. قيل كيف وقد ظلمك؟ فقال ابن أدهم: علمت أنني أؤجر على ما نالني منه فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر!!».

ما أحكمه من رأي!

لو فكر فيه المنتقمون من ظالميهم لعدلوا عن انتقامهم وتسامحوا معهم، بل لدعوا الله لهم!

وقيل للأحنف بن قيس وهو من أحلم الناس: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم، قيل: وما مبلغ حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية وخافت، فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى !

فما أعظمه وما أحلمه، فقد ضرب المثل الأعلى في قاعدة الإحسان للمسيء وأخذ أجر الصبر عند الصدمة الأولى.

ويروى أن أويساً القرني كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم: يا إخوتاه إن لم يكن بد فارموني بالصغار من الحجارة حتى لا تدموا ساقي فتمنعوني من الصلاة.

وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه، وكان يتبعه، فلما قرب الحي، وقف الأحنف وقال: إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك!!

عجباً.. يخشى على من يؤذيه من الأذى ويستعجله في استكمال أذاه حتى يستوفي أجره عند ربه بالصبر والحسنى والعفو.

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله: يا مراءٍ!! فقال لها: يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة!!

وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء فقيل له: لم تمسكه؟! فقال: لأتعلم الحلم عليه.

وروي أن عليّاً بن أبي طالب رضي الله عنه دعا غلاماً فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً فقال له: أما تسمع يا غلام؟ قال: نعم. فقال علي: فما حملك على ترك إجابتي؟ قال الغلام: أمنت عقوبتك فتكاسلت. فقال علي رضي الله عنه: امض فأنت حر لوجه الله تعالى.





لم يضربه ولم يشتمه ولم يعاقبه، بل أجزل له الجزاء، وأثبت له أنه -بحق- عظيم الخلق !!

وصدق الشاعر حين قال:

إذا ضاق صدر المرء لم يصفُ عيشه

ولا يستطيب العيش إلا المسامحُ



فأين نحن من أخلاق هؤلاء الرجال؟ وأين نحن من صبرهم على الأذى واحتمالهم للبلاء؟ إن الإيمان بالله والتعبد إليه يتجلى بحق في الكف عن أذى عباده. فلا ميدان لاختبار الإيمان خارج معاملة العباد.

قال يوسف بن أسباد: علامة حسن الخلق عشر خصال: قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من سيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، وملامة النفس، وترك عيوب الغير، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، واللطف مع من دونك ومن فوقك.






الذين يحبون أن تشيع الفاحشة

يستطيب البعض النيل من أعراض الناس بالغيبة والنميمة، والشك وسوء الظن وتتبع العورات، وقد يبرر أفضل هؤلاء لأنفسهم عملهم ذلك بأنهم لا يريدون به إلا الإصلاح وفعل الخير.

والحقيقة أن الذين يزيّنون لأنفسهم ذلك (الفعل) هم أبعد الناس عن فهم السلوك السوي الذي دعا ديننا إلى التعامل به في مثل هذه الأحوال، أما الذين يفعلون ذلك للاستمتاع بالخوض في أعراض الناس وأسرارهم؛ فهؤلاء من الذين يأتون بأقبح الأفعال وهم يعلمون إنهم لا يريدون من ورائها إصلاحاً.




حذَّر الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات هذا النوع من الناس، وشبه النيل من الأعراض بأبشع الصور التي تعافها النفس وهو أكل لحم الأخ ميتاً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾(الحجرات:١٢) وقد أتبع الله تعالى السؤال الاستنكاري في هذه الآية بدعوة هؤلاء إلى (تقوى الله) وإلى (تذكر رحمته) بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ (الحجرات:١٢) يدعوهم للتقوى بالامتناع عن الخوض في



أعـراض الـناس، ويذكـرهم بـأن هـذه الأمـور بينه وبين عباده، وأنه تواب رحيم.

ولم يحث ديننا على شيء ويشدد فيه بعد حسن الخلق، كما حث وشدد في مسألة الستر على العباد، فمن آداب المسلم ألاَّ يسترق السمع لسماع صوت المنكر ولا يستنشق لمعرفة رائحة الخمر، ولا يسأل الجيران عما يجري بدارٍ مجاورة لهم، وذلك تحقيقاً لمثل سلوكية عليا أمر بها رسول الله ﷺ حين قال: **(لا تحسسوا ولا تجسسوا)** [رواه البخاري] وقال: **(من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صُب في أذنه الآنك يوم القيامة)** [رواه البخاري].

وتغيب عن كثير من الناس حكمة ديننا في النهي عن تتبع عورات الناس لأنها تشيع الفاحشة، فالمستتر إذا انكشف جاهر بالمعصية وفسد، لهذا قال رسول الله ﷺ : **(إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم)** [رواه أبو داود وابن حبان].

لهذا أجمع علماء المسلمين كما يقول القرطبي على النهي عن الظن القبيح بمن ظاهره الخير واستتر ولم يجاهر بمعصية. وقد كثرت الأحاديث النبوية التي تحث على وجوب ستر المسلم. ورد في حديث أبي الدرداء أن رجلاً نال من رجل عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : **(من ردَّ عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة)** [رواه الترمذي] وليس هناك أقوى وأشد من هذا الوعيد **(من كشف**

عـورة أخـيه المسـلم كشف الله عورته حتى يفضحه في بيته) [رواه ابن ماجه].

وقـد سـار الخلفـاء الراشدون من بعد رسول الله ﷺ على هذا السـلوك العظـيم في الحـض عـلى السـتر والعمل به إيماناً بأنه أوسع الطـرق إلى توبـة المذنـبين وعـودة الضالين، جاء في حديث سعيد بن المسـيب أن رجـلاً مـن أسـلم جاء إلى أبي بكر الصديق فقال له: إن الآخـر زنـا، فقـال أبـو بكر: هل ذكرت هذا لأحد غيري؟ فقال: لا فقـال لــه أبو بكر: فتب إلى الله واستتر بستر الله فإن الله يقبل التوبة من عباده. [رواه مالك].

وورد في تفسـير الطـبري: «أتـى رجـل عمـراً فقال: إن ابنة لي كانـت وُئـدت في الجاهلـية، فاسـتخرجتها قـبل أن تمـوت، فأدركت الإسـلام، فـلما أسـلمت أصـابت حـداً من حدود الله، فعمدت إلى الشـفرة لـتذبح بهـا نفسـها، فأدركـتها وقـد قطعـت بعـض أوداجها - الأوداج: عـروق تكتـنف الحلقوم - ، فداويتها حتى برئت ثم إنها أقبلـت بتوبة حسنة، فهي تخطب إلي يا أمير المؤمنين فأخبر من شأنها بـالذي كـان؟ فقال عمر: أتخبر بشأنها؟ تعمد إلى ما ستره الله فتبديه! والله لـئن أخـبرت بشـأنها أحـداً مـن الـناس لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار، بل أنكحها بنكاح العفيفة المسلمة [إعلام الموقعين ج٣].




وقصة أبو هيثم كاتب الصحابي عتبة بن عامر مع جيرانه الذين



يشـربون الخمـر تحمـل درسـاً نـبوياً عظيماً. إذ أراد أبو هيثم أن يبلغ الشرطة لهم فنهاه الصحابي الجليل، وقال لـه عظهم وهددهم. ولما لم ينـتهوا أراد أبـو هيـثم إبلاغ الشرطة، فزجره الصحابي الجليل، وقال لـه: ويحـك لا تفعـل فـإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(من رأى عورة فسترها فكأنما استحيا موؤودة في قبرها)** [رواه أبو داود والنسائي].

ويـبلغ ديـننا في حـثه عـلى السـتر مـداه في قصـة رسول الله ﷺ مع الغامديـة الـتي جاءت معترفة بالزنا ورسول الله ﷺ يتيح لها الفرص واحدة بعد الأخرى لتتراجع عن اعترافها.

فهـل هـناك أعـلم بحـدود الله مـن رسـوله الـذي أرسـله رحمة للعـالمين، ومـع ذلـك فـإن بيننا أناساً من المسلمين يصرون على تتبع عـورات جيرانهـم والتنصت على أقربائهم وأهاليهم وهتك ستر من ستر الله عليه من عباده و غيرهم من عامة الناس.





لقـد أنـزل الله آيـة لـو وعاهـا المـرجفون بالفاحشـة بالتتـبع والتلصـص والاسـتراق والإشـاعة لمـادت بهم الأرض. يقول الله في كـتابه المحكـم مـتوعداً: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (النور:١٩).

ويحذر الذين خاضوا في ذلك بقولـه: ﴿ **إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ**

وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾ (النور:١٥-١٦) . وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «**كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع**» (صحيح الجامع الصغير).

وكذلك على المؤمن الحق أن يتجنب سوء الظن ولا يستمع للقذف والشك في عباد الله، ويحفظ قلبه من الريبة ولسانه من الغيبة، وفي حديث الإفك وقصته عبرة وعظة إذ أنزل الله قرآناً من فوق سبع سماوات يبرئ أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها.

ألا إن هـذا الديـن «سـتر» لا «فضـيحة»، و«رحمة» لا «قسوة»، و«فضـيلة» لا «رذيلـة» .. وإن من الإسلام سلامة الناس من لسانك ويدك، وترك ما لا يعنيك، وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، ولا معنى لإيمانك وعباداتك في هذا الدين إلا أن يكون سلوكك ومعاملاتك مع عباد الله ترجمة أمينة لها.



القاطعون الذين لا تشكو منهم المساجد..!!

يعيش بيننا أناس لا تشكو منهم المساجد لكثرة مواظبتهم على الصلوات، محافظون على الواجبات حريصون على السنن، ولا ينقصهم العلم الشرعي الذي يمكنهم من التمييز بين الحلال والحرام، ومع ذلك تجد بعضهم عاقاً لوالديه أو أحدهما أو قاطعاً لرحمه لا يعرف لخال أو عم طريقاً، ولا لخالة أو عمة براً، أو يكون مقاطعاً لأخيه أو أخته، أو محرماً السلام والمودة والسؤال عن بعض أهله.

قد لا يكون هناك عجب أن تأتي قطيعة الرحم من عاصٍ لا يخاف الله أو جاهل لا يعلم حدود الله، فالعاصي يُدْعَى لتقوى الله فإذا اتقى وصل بره في أرحامه، والجاهل إذا عرف مكانة صلة الرحم اتقى الله فيهم. ولكن ما حجة الذي يعرف ذلك كله ولا يعمل به؟ ما حجة الذي يصل الناس ويقطع رحمه؟ وما حجة الذي يصل بره إلى الأباعد ولا يصل أهله ورحمه؟!




كيف يقابل ربه من يقطع رحمه؟ وقد سمع أو قرأ قوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ** ﴿٢٥﴾ ﴾ (الرعد:٢٥). أو أمره سبحانه وتعالى في ربط التقوى بصلة الأرحام ﴿ **وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ** ﴾ (النساء:١). ويعد الله



سبحانه قاطع الرحم من المفسدين في الأرض، ويقول القاهر فوق عباده متسائلاً محذراً من فوق سبع سماوات ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد:٢٢-٢٤).

ومهما حاول قاطع الرحم أن يلتمس لنفسه الأسباب في عيوب وذنوب من يقطعه من أهله، فإن الآيات والأحاديث في مسألة صلة الرحم واضحة صريحة في النهي دون النظر في الأسباب والمسببات لأن في صلة الرحم طاعة لله وبراً بالنفس وطمعاً في أجر عظيم عند الله، لهذا لم يرد في حديث من أحاديث الرسول ﷺ استثناء يجوز به قطع الرحم، ولو كان هناك استثناء يجوز فيه قطع الرحم لأجاز الله لصاحب رسول الله وخليفته أبي بكر الصديق أن يقطع أحد أرحامه بعدما شارك في إشاعة حديث الإفك الذي رميت به ابنته السيدة عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها - وبرأها الله من فوق سبع سماوات بآيات تتلى، وهل هناك جريرة أكبر من أن يسيء إليك من تحسن إليه في أعظم شيء لديك، وهو شرفك وعرضك؟ وهذا الشرف، وهذا العرض هو لزوجة سيد المرسلين ونبي هذه الأمة! ومع ذلك ينزل القرآن من فوق سبع سماوات يأمر أبابكر أن يعفو وأن يصل رحمه؟!






والرواية تقول: **إن مسطح بن أثاثة القرشي المطلبي أمه بنت خالة أبي بكر الصديق، رباه أبو بكر يتيماً واعتبره واحداً من أولاده، وكان ينفق عليه وعلى أمه، واستمر على ذلك حتى أسلم مسطح وشهد بدراً، وكان من المهاجرين الأولين: فلما وقع حديث الإفك خاض مسطح فيه مع من خاض. فغضب أبو بكر من مسطح ناكر الجميل، فحلف ألا ينفق عليه ولا يصله بدرهم ولا يعطف عليه أبداً ثم طرده وأخرجه من منزله، فأنزل الله قوله تعالى إلى نبيه يأمر أبابكر أن يصل رحمه، فذهب رسول الله ﷺ إلى أبي بكر وتلا عليه قوله تعالى:** ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النور:٢٢). **ثم سأله رسول الله ﷺ أما تحب يا أبابكر أن يغفر الله لك؟ فبكى أبوبكر وقال: بلى يا رسول الله، قال: اعف عن مسطح وتجاوز، فقال أبوبكر: نعم لا جرم والله لا أمنعه معروفاً كنت أوليه قبل اليوم، فصار أبوبكر - رضي الله عنه - بعد نزول الآية يعطيه ضعفي ما كان يعطيه قبل ذلك، وقال له: أما إذا نزل القرآن يأمرني فيك لأضعفن لك** [رواه الطبراني].

فهل يوجد مسلم على وجه البسيطة بعد هذا كله يتجرأ أن

يعطي نفسه الحق في قطع رحمه؟ ولكن لا خيرة لمخلوق فيما أمر الله به، وقد أمر الله بصلة الرحم، بل أغرى واصل الرحم بالجزاء العظيم في الدنيا قبل الآخرة في عدد من الأحاديث الشريفة، منها قوله ﷺ: «**إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم حتى أن أهل البيت ليكونون فجرة فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا، وما من أهل بيت يتواصلون فيحتاجون**» [رواه الخرايطي في مكارم الأخلاق].

فإذا كان هذا وعد الله للفجرة الذين يصلون أرحامهم، فكيف تكون مثوبة الله للتقاة الذين يصلون أرحامهم؟! روي عنه ﷺ قوله: «**من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه وترفع عنه ميتة السوء فليتق الله ويصل رحمه**» [رواه الترمذي].

وقد جعل رسول الله ﷺ صلة الرحم مجاورة لتقوى الله والإيمان به، وجعل قطع الرحم مجاوراً للشرك بالله والكفر به، فقد سأل أعرابي رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله: فقال: «**الإيمان بالله قال: ثم مهْ؟ قال ﷺ: ثم صلة الرحم، قال: أي الأعمال أبغض إلى الله؟ قال ﷺ: الإشراك بالله، قال: ثم مهْ؟ قال ﷺ: ثم قطيعة الرحم**» [رواه أبو يعلى في مسنده] .

فهل بعد هذا من حجة أو عذر أو استثناء لقاطعي الأرحام؟!







السعادة شعورية والمتعة حسية !

كـم هـي قصـيرة اللحظات السعيدة في حياة الإنسان، بل وكم هي قليلة اللحظات السعيدة في العمر كله.

كـلام يـردده الـناس كـلما حـرموا مـن أشـياء يعـتقدون أنهـا ستسـعدهم، أو حـرموا مـن أشـياء يرغـبون في الحصـول علـيها، أو حرموا من أشياء حصلوا عليها ويرغبون في استمرارها.

ولكنـنا إذا تأملـنا هـذه المواقف والأشياء التي يعتقد الناس فيها سـعادتهم تحـت مجهر الفلسفة النفسية لواقع الطبيعة البشرية، وجدنا أن الـناس في أغلـب الأحـوال يـربطون سـعادتهم بأشياء من خارج ذواتهم ..



قـال رجـل لرسـول ﷺ : أوصـني، قال: «**عليك باليأس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه فقر خالص**».



في الحـياة أشـياء وظروف لا يستطيع الإنسان التحكم فيها لأنه لا يملكهـا، والإنسـان كمـا هـو معـروف لا يسـتطع التحكم فيما لا يملك.

هـناك إنسـان يـربط سعادته بمال يأمل في الحصول عليه، فإذا لم يحصل عليه قادته خيبة الأمل إلى الشعور بالتعاسة.



وهـناك شـاب يـربط سـعادته بفتاة يرغب في الزواج منها، فإذا

اعترض طريقه إليها عائق أو حال بينه وبين الزواج منها سبب أحس بالتعاسة وكأن أبواب الحياة والأمل قد أغلقت جميعها في وجهه.

هل لا يؤمن هؤلاء بأن بعد العسر يسرا، وهو وعد قطعه الله على نفسه من فوق سبع سماوات ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ (الطلاق: ٧). وقال رسول الله ﷺ: «**لو كان العسر في حجر لدخل عليه اليسر ليخرجه**»، وقال ﷺ: «**عند تناهي الشدة يكون الفرج، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء**».

وتظل الحقيقة أن الذين يربطون السعادة في حياتهم بأسباب مادية بحتة كثيراً ما يتحطمون على صخورها، إذا لم يحصلوا عليها أو إذا حصلوا عليها ولم تطل مدة امتلاكهم لها.

فما أكثر ما تجري الرياح علي غير ما تشتهي السفن كما هو معروف، أما الذي يؤمن أن سعادته في داخل نفسه، تنبع من ذاته، يصنع أسبابها ويمتلكها ويتحكم فيها، فلا يستطيع مخلوق الحيلولة بينه وبينها ولا تستطيع ظروف خارجة عن ذاته إفسادها في نفسه.




والقنوع هو الذي يحتاجه الناس ولا يحتاج إليهم، والقناعة مملكة السعادة، وصدق الشاعر حين قال:

إن القناعة كنز الغنى ... فصرت بأذيالها متمسك
فلا ذا يراني على بابه ... ولا ذا يراني له منهمك
حضرت غنياً بلا درهم ... أمرُّ على الناس شبه الملك

إن المتع المرتبطة بالحواس الخمس للإنسان تظل قصيرة الأجل



مهما طال أمدها، لهذا يصاب بالإحباط ويشعر بالتعاسة هؤلاء الذين يـربطون السـعادة في حـياتهم بالمـتع الحسـية وحدهـا، إن الإحساس يرتـبط بالجسـد فقط، أما الشعور فيكمن في روح الإنسان وفي أعمق أعماقـه، فإذا لم يرتبط الإحساس بالجمال أو المتعة مثلا بشعور عميق يـرفده اقتصـر أثره على اللحظة التي كان فيها، لذلك سرعان ما يفتر حماس هؤلاء الذين يجدون السعادة في متعة جمال المظهر دون الجوهر.

لـو تأمل هذا النوع من أصحاب السعادة الحسية في أعماق من حولهـم مـن الـناس لوجـدوا في نفوس بعضهم جواهر لا تقدر بمال ينبعث منها «نور» يغمر النفس ويملؤها محبة، ويحلق بهم في سماوات عامرة بالنقاء والشفافية والروحانية، نور من نفس تطهرت من التعلق بمـا يـتهالك علـيه الـناس في دنـيا صغيرة، نور يرفع النفس من طين الأرض الـتي تشـده شـهوات حواسـه إلـيها، ويسـمو به إلى عالم من الشعور بالجمال.

سـعادة تحققهـا أشـواق الـروح بالعفـة وتطهير النفس بالقناعة والرضـا والزهد عما في أيدي الناس. سعادة لا يستطيع امتلاكها من لـو دفـع أمـوال الدنيا كلها ثمناً لها.. سعادة تنبع من داخل النفس.. تنبعـث مـن الجوهر فتشع على المظهر فتكسبه جمالاً لا تصنعه أفخر الملابـس وأغـلى الحلـي.ومـن جعل سعادته في داخله انعكس نورها على كل أسباب الحياة من حولـه فكساها جمالاً ورواء وبهاء.

وهذا هو الفارق بين المتعة الحسية والسعادة الشعورية.

ذو حظ عظيم

قدم الله سبحانه وتعالى القربى منه في المعاملات على العبادات فجعل صاحب الخلق الحسن في أعلى المنازل كما نصت على ذلك العديد من الآيات والأحاديث الشريفة فقد روى محمد بن حارث الهلالي أن جبريل نزل على النبي ﷺ فقال: «**يا محمد إني قد أتيتك بمكارم الأخلاق في الدنيا وفي الآخرة**» ووصف الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤** ﴾ ومن هنا جعل النبي ﷺ : «أقرب الناس مجلساً إليه يوم القيامة أحسنهم أخلاقاً، وذلك امتحاناً لقدرات المسلمين على التأسي بنبيهم بأمر الله سبحانه وتعالى الذي يقول: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ** ﴾ .





وإذا كان حسن الخلق في الإسلام هو العمود الفقري الذي يقوم عليه فقه المعاملات في الإسلام، فإن الحلم ذروة سنام حسن الخلق، لأن الحلم يحث على الصبر والعفو والتسامح وكظم الغيظ وهي جملة آداب يحتاج العمل بها إلى مكابدة ومجاهدة ورياضة روحية ونفسية ومشقة وقهر للنفس، وهي أمور لا يحتاجها الإنسان في أداء العبادات، لهذا جعل الله الالتزام بها في المعاملات بين الناس أعظم



وأرفع منزلة من أداء العبادات مع سوء الخلق. وقد جعل الله سبحانه وتعالى حَسَنَ الخلق من أصحاب الحظوظ العظيمة وذلك في قوله تعالى: ﴿ **ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾** ﴾.

ويلخص لنا العلي القدير المعادلة الخلقية العجيبة في هذه الآية الكريمة، فهو يعطينا الوصفة في قوله: ﴿ **ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾، وقد جاءت في صيغة الأمر لثقة الواصف وهو القدير الخبير بنجاح هذه الوصفة ثم يعقبها بإعلان النتيجة «**فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**» وهي مكافأة في الدنيا.. مكافأة عاجلة يقدمها الله رب العالمين فيتحول العدو إلى صديق «**ولي حميم**» ولكن بثمن غال وهو الصبر: ﴿ **وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟** ﴾ ثم يعلن رب العالمين عن مكافأة الآخرة وهي أعظم وأجل حين يقول: ﴿ **وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾** ﴾.

روي أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن حسن الخلق، فتلا قوله تعالى: ﴿ **خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ** ﴾ [الأعراف:١٩٩]

وروى هشام عن الحسن أن النبي ﷺ قال: **(أيعجز أحدكم أن**

يكـون كـأبي ضمضـم؟ كـان إذا خـرج مـن منزلـه قال: «اللهم إني تصـدقت بعرضـي عـلى عبادك» وروي عنه ﷺ قولـه: إن الله يحب الحليم الحيي وقال ﷺ : «من حلم ساد ومن تفهم ازداد».

ومـن أعظـم مـا يـروى عـن صـحابة رسول الله ﷺ في مسائل تأسـيهم بيـنهم وعمـلهم الصـادق المخلص الأمين بأدب الإسلام في معـاملاتهم بكـل ما فيه من تواضع واحتساب لله ما قال أبو الدرداء رضـي الله عـنه لرجل أسمعه كلاماً فاحشاً: يا هذا لا تغرقن في سبنا ودع للصـلح موقعـا فإنـا لا نكافـئ مـن عصى الله فينا بأكثر من أن نطـيع الله عـز وجل فيه». وشتم رجل الشعبي فقال: إن كنت أنا كما قلت أنت فليغفر الله لي، وإن لم أكن كما قلت فليغفر الله لك».

كان هؤلاء الرجال الأجلاء ينطلقون في ما يقولون ويفعلون مما يتعـلمونه في مدرسة رجل كان خلقه القرآن.. مدرسة محمد ﷺ، فقد كـانوا مـن القـادرين على الرد البذيء ومن القادرين على الانتصار لأنفسـهم، ولكـن كـيف ينتصرون لأنفسهم وهـم يتلون قولـه تعالى: ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ ومـا كان أحـد مـنهم يفضل على أجر ربه بديلاً، وكانوا يسمعون الرسول ﷺ يقـول: «**وإذا قـدرت عـلى عدوك فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه**» فوصـفهم الله سـبحانه من فوق سبع سماوات بأنهم من أسعد خلق






الله لأنهم: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ ذلك لأنهم من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس.

فهل أبقى دين الرحمة والسلام والمحبة لذي غضب حجة أو لسيئ الخلق مجالاً أو لذي الباطل مقالاً من دون أن يبطل كل ما لديه ما دام في قلبه ذرة تقوى وإيمان؟!






إذا فعلنا فاحشة أو ظلمنا أنفسنا

لو أدرك كل مسلم في لحظة غضب على أخ له، أو في أثناء محاولة انتقام ممن أساء إليه.. لو تذكر كل مسلم كمية الأحقاد والضغينة التي يحملها في قلبه على أناس ظلموه أو أساؤوا معاملته أو أخطؤوا في حقه بقصد أو بغير قصد.. لو تذكر كل مسلم وهو يقطع هذا الذي هو من رحمه أو من غير رحمه أو وهو يدعو في صلاته قاعداً قائماً على من ظلمه.. لو تذكر هؤلاء الغاضبون المنتقمون الحاقدون قاطعو الأرحام وغير الأرحام.. لو تذكروا أن رحمة الله وسعت ذنوبهم وخطاياهم وآفاتهم - وما أكثرها - وأن قلوبهم لم تتسع لهفوات إخوانهم وأهاليهم وغيرهم.. لطهروا قلوبهم ولعفوا وصفحوا.

أعجب حين أتأمل الآيات والأحاديث التي تتحدث عن سعة رحمة الله وعن حلم الله على عباده، وعن تكراره الغفران لهؤلاء العباد الذين يذنبون ليل نهار بلا كلل ولا ملل، فإذا ما استغفروا وجدوا رباً سميعاً غفوراً لكل هذه الذنوب. لقد فتح لهم الرحمن الرحيم باب الرحمة وحثهم على الاستغفار كلما أذنبوا ومهما كثرت ذنوبهم ما لم يشركوا بالله أو يأكلوا حقاً من حقوق عباد الله!

كيف لا نلتفت إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ

﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝١٣٦﴾ (آل عمران: ١٣٥-١٣٦).

إن تذنب وتستغفر ولا تصر على ما فعلت أي تتواضع لله ولعباده يكن جزاؤك ليس المغفرة فحسب، بل جنة تجري من تحتها الأنهار!

ومع ذلك فهناك بيننا من المسلمين من يصر على ذنبه ولا يستغفر ربه ولا يغفر لأخيه!

وقد وقفت على حديث جليل عظيم مهيب تأملته أياماً بأكملها، وأعود أنظر إلى أحوال الناس من حولي فأعجب لعباد فتح لهم ربهم أبواب الرحمة والمغفرة كما لم يُفتح لهم قبلها ولا بعدها باب ومع ذلك فهم يصدون عن هذا الباب حين يصرون على ذنوب صغيرة وخطايا حقيرة تضيع في خضم بحر رحمة الله ولم تتسع لها قلوبهم. عن أبي هريرة رضي الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن عبداً أصاب ذنباً فقال: يا رب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي. فقال له ربه: علم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له. ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر فقال: يا رب إني أذنبت ذنباً آخر فاغفر لي. قال ربه: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له. ثم مكث ما شاء ثم أصاب ذنباً فقال العبد: يا رب إني أذنبت**

ذنباً آخر فاغفره لي. فقال أرحم الراحمين: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فقال: غفرت لعبدي فليعمل ما يشاء [متفق عليه].

ووجدت الحديث القدسي يكمل هذا المعنى العظيم الذي يضربه الله عز وجل بنفسه في العفو والتسامح مع عباده لعلهم يتسامحون مع أنفسهم يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «**يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقُرابها مغفرة**» [رواه الترمذي].

سبحانك ربي وسعت رحمتك كل شيء ..

سبحانك ربي أكرمت ابن آدم فلم يكرم نفسه بطلب غفرانك بالإحسان إلى عبادك والعفو عنهم.






















إن المحروم يا إلهي هو ذلك العبد الذي يحرم نفسه كرمك ومن سعة مغفرتك..

إن الشقي يا إلهي هو ذلك العبد الذي تقوده شقوته إلى إغلاق قلبه دون رحمة الناس..

هو ذلك الذي يحمل في قلبه ذرة كراهية أو حقد أو انتقام من عبد من عبادك.

لماذا لا نتأسى بذلك الرجل المبشر بالجنة الذي لا ينام إلا وقد

طهر قلبه من كل غل أو ضغينة أو نائبة حملها في الصباح على كل من أساء إليه، يدعو هذا الدعاء بالليل ويعمل به في الصباح، يقول:

«اللهم إني قد عفوت عمن ظلمني وأحسنت لمن أساء إليّ وتصدقت بعرضي على الناس، فاسترني فوق الأرض، واسترني تحت الأرض، واسترني يوم العرض، وأدخلني في واسع رحمتك يا أرحم الراحمين».







لكي لا تزداد ضربات القلب !

ينكر بعض الذين لا يفقهون دور القلب ومكانته في حياة الإنسان الوجدانية، ولا يرون فيه إلا قطعة لحم تضخ الدم في الجسد، وإذا قلنا لهذا النوع من التفكير المادي أن القلب موئل المشاعر قالوا كيف يكون ذلك ونحن إذا استبدلنا قلب الإنسان بقلب آخر لا تتغير مشاعره ولا تتبدل مواقفه من الحياة والأحياء.

نقول نعم ذلك هو سر الله في خلقه، ومن أسرار الروح التي جعلها الله في الإنسان بأمره فالقلب في الجسد (أ) لا يمكن أن يؤدي الوظيفة العاطفية والوجدانية نفسها إذا انتقل إلى الجسد (ب) لأن انفعالات وتفاعلات الجسد (ب) تختلف عن (أ) وبالتالي تختلف الإشارات التي يتلقاها الدماغ عما يحدث في حياة الإنسان اليومية، وذلك كله ينعكس صداه على القلب. إن سر الله العلي القدير يكمن في ذلك التفاعل العجيب بين نوع الحياة الانفعالية التي يعيش الإنسان من جهة وبين وظائف أعضاء الجسم الأخرى من جهة أخرى وبين القلب.. إنه ذلك التفاعل بين المعنوي والمادي وبين الحسي والشعوري.. وهذا ما جعل الأطباء يعترفون بسلطان الأثر النفسي على جسد الإنسان، لأنه بالإمكان تحول الإحساس بالمرض أو حتى الوهم بالمرض إلى مرض حقيقي يسكن في أحد أعضاء



الإنسـان. لهـذا تؤثـر الحـياة الانفعالـية عـلى قلـب الإنسان أكثر من تأثيرهـا عـلى أي عضـو آخـر فـيه، فقد يتوقف قلب إنسان من شدة الفـرح وقـد يـتوقف من شدة الحزن، وتزداد ضربات قلوب العشاق في انـتظار الحبيـب، وتـزداد ضربات قلوب عامة الناس قبل الدخول على مسؤول كبير أو في لحظة خوف أو تهيب أو قلق أو توتر.

ومـن هنا كان ارتباط أمراض القلب العضوية بأمراض صاحبه النفسـية، وعاداتـه الغذائـية، وبطـريقة تفكيره في الحياة ونوع سلوكه الخلقي والاجتماعي.

فالإنسـان المطمئن بالله في كل شيء، المؤمن بأن الله قد قدر لـه رزقـه وعمـره وحـياته ومماتـه لا يـندم على شيء فاته ولا يسرف في الفـرح بشيء جاءه، ولا يخاف إن انقطع رزقه في يوم من الأيام، لأن الله هـو الـرزاق ذو القوة المتين، ولا يقلق إن أصابه مرض لأن ذلك ابـتلاء الله لعباده، وإذا كان هذا الإنسان المؤمن حقا بريئاً من أوضار النفس كالحقد والغيرة والحسد والانتقام، وعمل في سلوكه مع الناس بالتسـامح والعفـو والصـفاء، فكـيف سـيكون قلبه عضويا وروحيا؟ سـيكون قلـبه سـليماً قويـاً مؤمـناً مطمئناً لقضاء ربه وقدره لا تزداد ضربات قلبه فرحاً مفرطاً بما أُوتي ولا خوفاً وهلعاً مما لم يؤتي.

إن انفعـالات الإنسان ترتبط بنوع سلوكه، فإذا صحح الإنسان

طـرائق حياته انقطعت مسببات تلك الانفعالات الضارة على القلب إن قلـب المؤمـن المسَلِّم أمرَهُ لله، المتوكل عليه الواثق أنه لا ينفعه إلا الله أصح القلوب عضويا وأنظفها روحيا، لهذا فالقلب الفاسد يضخ سلوكا وتفكيراً فاسداً في الإنسان كله، والقلب الصالح يصلح به أمر الجسد والسلوك والتفكير.

وفي هـذا المعـنى الكـبير يصـب حديث الرسول ﷺ حين قال: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» [متفق عليه] وصدق نبينا ﷺ .





الطريق إلى لقاء عظيم في الجنة

عجيب أمر الذين يفسدون بين الناس، وهم يستطيعون الإصلاح، والذين ينتقمون وهم يستطيعون العفو، أما درى هذا النوع من البشر بمغبة السعي بين الناس بالإفساد فيما أنزله الله من فوق سبع سموات من نذير ووعيد؟! أفلا يتدبرون قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ (يونس:٢٣) وقال: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ (فاطر:٤٣) وقال: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ (الفتح:١٠).

أما أجر الساعي بين الناس بالإصلاح فهو من المكانة بحيث يقدمه الله على أصحاب العبادات في القرب منه تعالى، ولا يهرب من القرب من الله إلا شقي محروم، قال الرسول ﷺ : «**أفضل الناس عند الله أنفعهم للناس، وأقرب الناس إلى الله المصلحون بين الناس، ومن أصلح بين اثنين إذا تقاطعا أعطاه الله بكل كلمة مثل أجر عتق رقبة**».

ويؤكد الرسول ﷺ أفضلية الصلح بين الناس على العبادات المفروضة فيقول: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصوم والصدقة والصلاة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين**» [رواه الطبراني

والخرائطي في مكارم الأخلاق]، وحذر ﷺ من البغضاء، وقدم رسول الله ﷺ الصلح بين الناس على حضوره صلاة الجماعة، ففيما رواه البخاري في صحيحه من حديث سهل بن سعد **أن رسول الله ﷺ خرج إلى قباء للصلح بين بني عمرو بن عوف، وحانت الصلاة وهو بينهم فلم يحضرها فأمَّ الناس أبوبكر - رضي الله عنه** - وقد أباح الإسلام «الكذب» للإصلاح بين الناس وهو من الكبائر إذا استغل للإفساد بينهم.

وبقدر ما يكون أجر الصلح بين الناس عظيما فإن أجر التسامح بين المختصمين أعظم، وليس أدل على عظمة هذه المكانة من حديث شريف قال به أنس -رضي الله عنه- ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق وقال الحاكم صحيح الإسناد، قال: «**بينما رسول الله ﷺ جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما الذي أضحكك؟ قال: ﷺ: رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما: يا رب خذ مظلمتي من هذا، فقال الله عز وجل للآخر: رد على أخيك مظلمته، فقال الرجل: يا رب لم يبق من حسناتي شيء فقال الله تعالى للمدعي: كيف تصنع بأخيك، لم يبق من حسناته شيء؟ فقال المدعي: فليحمل من أوزاري ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء فقال للحضور: إن ذلك اليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم،**

في مثل هـذا اليوم يقول الله عز وجل للمطالب بحقه من أخيه: ارفع بصـرك فانظر في الجنان، فيقول المطالب بحقه: يارب مدائن من فضة وقصـور من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ ولأي صدِّيق هذا؟ ولأي شـهيد هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن أعطى الثمن، فيقول المطالب بحقـه: يـا رب ومـن يملـك ذلـك؟ فـيقول رب العالمين: أنت تملكه! فـيقول المطالـب بحقه: بماذا يا رب؟ فيقول له أرحم الراحمين: بعفوك عـن أخيك. فيقول المطالب بحقه: يا رب قد عفوت عنه، فيقول رب العالمين: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة، وسكت رسول الله ﷺ ثم قال لأصـحابه اتقـوا الله وأصـلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين المؤمـنين يـوم القـيامة». فمـا أحوجـنا إلى العبرة المستفادة والدروس الخالصـة مـن هـذا المثل في واقعنا المعاصر، وما أحكم الإنسان الذي يبـتغي مرضـاة الله، ويـتاجر مـن أجـل سـعادة الآخـرة والنجاة من العـذاب الألـيم، لا أن يكون قاصر النظر ويطلب حقه من أخيه غير القـادر عـلى السـداد بالشـكوى والذل والإهانة والفضيحة لعبد من عباد الله.

فـالله سـبحانه ضـرب مـثلاً لعباده في الصلح بينهم، فما أعظم المنزلة وما أرخص الثمن، وما أعظمه من مثل ضربه الله تعالى لعباده لعلهم يرجعون إلى الحق ويفضلون نعيم الآخرة على الدنيا، وللآخرة خير وأبقى.

هذا مكمن الخلل في حياتنا ..

أثناء مراجعتي لدروس أولادي خلال إحدى فترات الامتحانات، وجدت نفسي ذات مرة أنساق في بحر من التأمل الحزين للحال الذي وصلت إليه أمتنا. وجدت أن المواد الدينية والتربوية تتحدث عن كل ما يخطر ببالنا من قيم ومبادئ ومثل عليا يوجهنا ديننا للعمل بها، وتتحدث عن رجال ونساء عاشوا هذا الدين إيماناً وسلوكاً يجب علينا أن نقتدي بهم. وسألت نفسي بعد ذلك: أين يكمن الخلل؟

ووجدت نفسي أمام سؤال كبير لا أستطيع الإجابة عليه وحدي، بل تحتاج الإجابة عليه إلى تركيز اهتمام الدعاة والباحثين في علوم العقيدة والسلوك الإنساني وعلمي النفس والاجتماع للبحث عن هذا الخلل في أمة تعيش انفصاماً بين ما تعتقد، وهو ما ينبغي أن تعمل به، وبين ما تعمل به بالفعل، إن هذا التناقض يصبح مقبولاً إذا كان على طريق مجاهدة النفس للوصول بها إلى المستوى المرضي عنه، فلا بأس أن يشذ الإنسان عن القاعدة من حين لآخر بحكم بشرية الإنسان التي لا يمكن أن تصل إلى الكمال، وقد التمس ديننا - الواقعي - للإنسان العذر فتساهل عن «اللَّمم» وقال ﷺ : «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**» [رواه ابن ماجه وصححه الألباني] لأن






هـذا يحـث الإنسـان على السعي نحو الأفضل، وقد بين الله تعالى أن رحمـته وسـعت كـل شـيء إلا الشرك به، ليدفع بعباده نحو المزيد من مجـاهدة النفس والارتقاء بها في مدارج الكمال، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء:١١٦) .

ولـو شـدد رب العـالمين عـلى كل خطيئة يرتكبها عباده وأقفل أمـامهم أبـواب الـرحمة والمغفـرة لازداد طغـياناً كـل من انحرف عن الجـادة، واتبع أكثر الناس الهوى، ولكن الله بعباده لطيف خبير أدرى بالـنفس البشـرية الـتي ألهمهـا فجورهـا قبل تقواها، ومع ذلك، فإن التـناقض في حـياة الإنسـان عـندما يـتجاوز حـدوداً معيـنة يصـبح «ظاهـرة»، والظاهـرة في مـثل هـذه الحـال كما يسميها علماء النفس والاجـتماع تصـبح «مرضاً»، ومرض الكثير من أبناء أمتنا الإسلامية أنهـم فقـدوا المقدرة على الربط بين «المعتقد» وبين «السلوك»، إن في دنـيانا أناساً لا نشك في إيمانهم وعقيدتهم مطلقاً، ومع ذلك فإنهم لا يعيشـون هـذا الإيمـان وهـذا المعـتقد في معـاملاتهم، وإنمـا تنحصـر عقـيدتهم وإيمـانهم في دائرة العبادات وحدها، وكأن هذا الدين ليس بمـنهج حياة، فمعظم أبناء الأمة الإسلامية من المصلين ومن القائمين عـلى العبادات وحتى العصاة منهم يعود إليهم إيمانهم وتَرِقُّ قلوبهم إذا ما سمعوا قول الله وقول الرسول ﷺ فيؤدون ما يلزمهم به دينهم







من واجب العبادات، ثم يكون الخلاف بعد ذلك في المعاملات التي هي أشق على النفس من العبادات.

وقد يكون السبب في هذا تربوياً، لأن عهد الأمة بعيد عن ممارسة السلوك الإسلامي في المعاملات بين الأفراد منذ انهارت حضارة الإسلام، وغزتنا الحضارة الغربية، وشكك في ديننا بعض أبناء هذا الدين أكثر من أعدائه، وقد يكون السبب أيضاً أن أسلوب الخطاب الوعظي والدعوي انحصر في مراحل ضيقة الآفاق على حصر الدين في العبادات وحدها، فوقر في أذهان الناس أن من أدى العبادات فقط دخل الجنة وإن كذب وإن سرق وإن حنث وإن أكل مال أخيه وإن باع على بيعه، وإن خان وإن.. وإن إلخ.

ولو كان هناك تركيز في الخطاب الدعوي والوعظي على أهمية السلوك والمعاملات بين المسلمين مع بعضهم بعضاً مثل تركيزنا في الحض على أداء الصلوات والزكوات وغيرها من الشعائر التعبدية لما استهان المسلمون بمسألة المعاملات فيما بينهم، وهي لا تقل أهمية إطلاقاً عن العبادات، بل إن الله سبحانه وتعالى ليغفر للعبد تقصيره في العبادات لأنها شأن بينه وبين ربه، ولا يغفر له فيما بينه وبين أخيه المسلم، أو غير المسلم في مسألة المعاملات والسلوك والحقوق.




وقد غَرِقْت في بحر حزين من الهموم عندما مر بي حديث جليل عظيم تدرسه ابنتي في الصف السادس الابتدائي، فعن أبي هريرة –



رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، التقوى ها هنا.. التقوى ها هنا .. ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه**» [رواه مسلم].

وسألتني ابنتي ببراءة بعد أن شرحت لها معاني الحديث: ولماذا لا يعمل المسلمون بما جاء في الحديث وهم يؤدون الصلوات وكافة العبادات؟! فحرت جواباً ولا أظن هذا الكتاب وحده يجيب على سؤالها، ففي إهاب هذا الحديث العظيم اجتمعت الخصال الذهبية التي لا يصبح المسلم مسلماً إلا بها لأن «**المسلم من سلم الناس من لسانه ويده**» فمن التزم بما نهى عنه الحديث يصبح مسلماً بحق، حسن الخلق وجيهاً عند الله في الدنيا والآخرة.

إن هذا الحديث العظيم يرسي بنود دستور المسلم في حياته اليومية، ولو يقف كل مسلم أمام مطالب هذا الحديث ويسأل نفسه بصدق وأمانة: ماذا قدمت بين يدي الله سبحانه وتعالى مما يأمرني به في هذا الحديث؟!

وبناء على جواب صادق وصريح لهذا السؤال يستطيع الإنسان

المسلم أن يعيد تقييم نفسه، ويعيد النظر إلى منهج حياته ليضع ذلك التوافق والتوازن بين العبادات والمعاملات.. بين الصلاة والحياة، فإذا تم هذا التوافق كانت حياة الإنسان المسلم كلها صلاة.. فما يعمل ابن آدم عملاً يحتسبه لله ويبتغي به مرضاة الله إلا احتُسِبَ له عبادة وقربى، فما أعظم ما يحثنا عليه ديننا وما أجمل الثواب الذي ينتظرنا حين تكون كل حركة وسكنة في حياة المسلم عبادةً وصلاةً وطريقاً إلى مرضاة الله عز وجل.






حق الجار الذي أضعناه!!

تمتلئ محاكم كثيرة في طول العالم الإسلامي وعرضه بقضايا الجيران ومشاكل سوء الجيرة أدبياً وأخلاقياً ومادياً، فهناك الجار الذي اغتصب قطعة من أرض جاره، وهناك الجار الذي استطال في البنيان فكشف دار جاره، وهناك الجار الذي استدان من جاره ولم يُعِد إليه حقه، وقد حذر رسول الله ﷺ من مخاصمة الجار ومقاضاته في كلمته الشهيرة «**أول خصمين يوم القيامة جاران**» [رواه المنذري في الترغيب والترهيب وحسنه الألباني].

وبالمثل عُرف هذا العصر بضياع الحقوق المعنوية والأخلاقية للجار، وقد امتدت أخلاق الجيرة السيئة إلى بعض الفئات المشهود لها بالصلاح فتجد جيران هذه الأيام لا يتزاورون في الأعياد، ولا يتفقد الواحد منهم جاره وأحواله ويكتفي أفضلهم بالسلام والتحية والمجاملة عند المقابلة.

أما أسوأ أنواع الجيرة على الإطلاق فهي تلك التي يعتدي فيها الجار على جاره فيؤذيه في عرضه وشرفه، وهي خيانة لا يرتكبها حتى من طبع على الخيانة واللؤم والخسة، يقول رسول الله ﷺ محذراً: «**لأن يزني الرجل بعشر نسوةٍ أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره**» [رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني]. وقد تعرض

الشعراء لمكانة زوجة الجار ومكانة أمانة هذا الشرف في المجتمع المسلم، فنجد أبياتاً للشاعر الأموي المعروف مسكين الدارمي يقول فيها:

نـاري ونـار الجـار واحـدة ... وإلـيه قـبلي تُـنزَلُ القِـدرُ
مـا ضـرَّ جـاراً لـي أُجـاوره ... ألا يكـونَ لِـبابه سِـترُ
أعمـى إذا مـا جـارتي بـرزت ... حـتى يُغَيِّـبَ جـارتي الخِـدرُ

وعـرف عـن شـاعر آخـر هذا البيت الشهم الغيور الذي يدور حول المعنى نفسه:

وأغـض طرفي ما بدت لي جارتي ... حـتى يـواري جـارتي مأواهـا

وقد كانت آداب حسن الجوار من أخلاق العرب قبل الإسلام، وهـي آداب حـافظ علـيها الإسـلام وحـث علـيها، وقـد أثبت هذه الحقـيقة رسول الله ﷺ بعد البعثة حين قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخـلاق**» [السلسلة الصحيحة للألباني] **وقـال «خـياركم في الجاهلـية خـياركم في الإسـلام إذا فقهـوا»** [رواه البخاري]. ولهـذا فـإن الذيـن يغـدرون بالجار من المسلمين ويطعنونه في شرفه أو ينهبونه في ماله أو يسيؤون إليه في خلقه ودينه هم أجهل من الجاهلية بلا جدال.

وهـل أَدَلُّ عـلى مكانـة الجـار في المجتمع المسلم من ارتفاع هذه المكانة إلى أعلى المنازل في قوله ﷺ : «**من آذى جاره فقد آذاني، ومن**





















آذاني فقد آذى الله» [رواه المنذري، وضعفه الألباني].

وترتفع صفة الإيمان عن المسلم الذي يغدر بجاره، ويقسم رسول الله ﷺ على ذلك حين يقول: «**والله لا يؤمن من لم يأمن جاره بوائقه**» [رواه البخاري]. وقد فصل ديننا في حقوق الجار وقسم الجيران إلى ثلاثة أنواع كما جاء في الحديث: «**إن من الجيران من له ثلاثة حقوق وهو الجار المسلم ذو القرابة، ومنهم من له حقان وهو الجار المسلم، ومنهم من له حق واحد وهو الجار الذمي**» [ضعفه الألباني في ضعيف الجامع بلفظ نحو هذا].

فتأمل سماحة هذا الدين وإنسانيته ورحابة أفقه، إذ يجعل حتى للجار غير المسلم حقاً عليك لما يجمعك به من أخوة الإنسانية، ولما في ذلك من حكمة تؤلف قلب هذا الذمي وتقربه من الإسلام، فأين هذه الحكمة اليوم من أناس يعتقدون أنهم أقرب خلق الله في العمل بدين الله؟! ولا يعرفون لجارهم حقاً، إذا رأوا منه انحرافاً في خلقه أو تقصيراً في أداء فروضه وهو مسلم مثلهم قد يهديه الله بسبب تقربهم إليه بأداء حق الجار الذي أمر الله به من فوق سبع سماوات؟

وقد تحدث رسول الله ﷺ عن ثلاثة يحبهم الله عز وجل منهم: «**رجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يكفيه الله إياه بحياة أو موت**» [رواه أحمد والطبراني بإسناد صحيح].

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم**

الآخر فليكرم جاره» [رواه البخاري].

قال رسول الله ﷺ : «**أتدرون ما حق الجار؟ إن استعان بك أعنته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر جُدت عليه، وإن مرض عدته، وإن مات تبعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذِه، وإن اشتريت فاكهة فأهدِ له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذِه بقتار قدرك (رائحة الطبيخ) إلا أن تغرف له منها، أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده! لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله**» [ذكره العراقي في تخريج الإحياء بسند ضعيف].

هذا هو دستور العلاقة الاجتماعية بالجار في الإسلام يتحدث عن أدق التفاصيل على لسان نبينا ﷺ ، ولا عجب أن يقول بأمر السماء: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه**» [متفق عليه] ولهذا جرى المثل السائر «جارك القريب أفضل من أخيك البعيد». ومع ذلك فإن هناك المسلم الذي لا ترى في دينه عيباً له جيران لم يدخل لهم بيتاً ولم يتفقد لهم حالاً، ناهيك عن المسلم الذي لا دين له، فكيف بالله نسأل رحمة الله وعفوه وغفرانه عقب كل صلاة ونحن لا نسلك طريق الرحمة من أوسع أبوابها ؟

لهذا غضب رسول الله ﷺ

معدودةٌ هي المواقف التي غضب فيها رسول الله ﷺ، فمعظمها إن لم تكن كلها كانت في أمور تتصل بانتهاك المحارم وحقوق الناس المعنوية والمادية.. وكان من أكثر الذين غضب عليهم رسول الله «ﷺ» الأئمة الذين يطيلون على الناس في الصلاة.

يروي أبو مسعود: **قال رجل: يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الفجر مما يطيل بنا فلان فيها، فغضب رسول الله ﷺ ما رأيته غضب في موضع كان أشد غضباً منه يومئذ، ثم قال:«يا أيها الناس إن منكم منفرين، فمن أَمَّ الناس فليتجوز، فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة»** [رواه البخاري].

وقد وردت أحاديث كثيرة تؤكد هذا المعنى، منها ما رواه أبو هريرة **أن رجلاً صلى خلف معاذ بن جبل فوجده يقرأ سورة البقرة أو النساء فلم يطق الرجل فاشتكى إلى النبي ﷺ فقال ﷺ: لمعاذ: «يا معاذ أفتان أنت؟» «ثلاث مرات» وعجب منه إن لم يقرأ قصار السور وقال ﷺ:«فلولا صليت بسبح اسم ربك، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة»** [رواه البخاري].

ومع ذلك فإن بعض الأئمة يطيلون على الناس في بعض الصلوات المفروضة مثل صلاة الفجر، وفي السنن مثل صلاة التراويح في رمضان، الأمر الذي يجعل الكثير من المصلين يهربون من الصلاة في المساجد المجاورة لهم إلى مساجد أخرى بعيدة، وقد يحرم هؤلاء الأئمة بعض الناس من الصلاة نفسها فيتقاعس المصلي عن الخروج إلى المسجد مبكراً حتى تفوته عدة ركعات في صلاة التراويح فتفوته بذلك صلاة الفريضة في جماعة بسبب هروبه من إطالة الإمام، وهناك من يجدها ذريعة فيترك صلاة التراويح تماما اتباعا لهوى في نفسه. أما كبار السن فما أكثر ما رأيتهم في مساجد «الإطالة» يتململون من التعب أو يستريحون بين الركعات أو يناوبون بين الصلاة جلوساً والصلاة قياماً.



والسؤال: لِمَ هذا كله؟

أتِّباعاً لرغبة الإمام الذي يخالف نصاً صريحاً وأمراً واضحاً من رسول الله ﷺ الذي أرسله ربه رحمة للعالمين؟



لماذا يُعَسِّرون وهذا الدين يسر؟ ولماذا يشقّون على الناس ونبيهم وقدوتهم ﷺ يقول: «**إنما أنا رحمة مهداة**» (الدارمي ١٥ مرسلاً).

وقد عاش رسول الله ﷺ حياته كلها محذراً من الغلو في كل شيء قائلاً: «**بُعثت بالحنيفية السمحة**» [رواه أحمد] و«**خير دينكم أيسره**»



[رواه أحمد]. وما أكثر ما ردد «**القصد القصد تبلغوا**» [رواه البخاري] و«**عليكم هدياً قاصداً**» [رواه البيهقي في السنن الكبرى ٤٥١٩]. لهذا قال لهم «**خذوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا**» [رواه البخاري].

ومهما تكن حجج هؤلاء المعسّرين المغالين سواء في العبادة أو أي أمر من أمور الدين التي يسرها الله رحمة بعباده فإنها جميعا تسقط أمام ما ورد في صريح كتاب الله وصحيح سنة نبيه ﷺ، وما الإطالة على الناس في الصلوات المفروضة أو النافلة إلا نموذج من عدم مراعاة مقتضى الحال في العبادة، وهي نوع من أهم أنواع التعامل مع الناس.

فإذا كان رسول الله ﷺ قد أشفق على أصحابه من الإطالة وغضب غضباً شديداً وهم أصحاب الإيمان الراسخ كالجبال الذي فتحوا به كل الدنيا، فكيف يكون الحال مع مسلمي اليوم؟!.

نهاية الحيرة بين القلب والعقل

ألجأ دائماً في المواقف والمآزق والفتن التي تمر بي في حياتي إلى حديثين للرسول ﷺ يقول في أولهما «**يا معاذ: اتق الله ما استطعت...**» [ذكره ابن رجب في العلوم و الحكم] ويقول في ثانيهما «**استفت قلبك واستفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك**» [رواه أحمد]. ولقد وقفت طويلاً أمام مسألة استفتاء القلب لا العقل، وعدت إلى كتاب الله أنشد فيه الجواب، فوجدت أن الآيات التي ذكر فيها القلب تربطه بالإيمان وبالرحمة والهدى والصدق والسلام وبالعقل أيضاً، وجدتها جميعاً تصدق قول المصطفى ﷺ: «**التقوى هاهنا.. التقوى هاهنا**» [رواه أحمد] وأشار إلى قلبه الذي يسكن فيه الإيمان، وإذا حدث ذلك يعيش الإنسان مؤمناً ولو أنكرت سائر الأعضاء. فالإيمان إيمان القلب بدليل ﴿ **إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ** ﴾ [النحل:١٠٦].




والقلب منبع الرحمة ﴿ **وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً** ﴾ (الحديد:٢٧) والقلب موطن الاعتماد لاجتماع حقيقة صدق النوايا فيه: ﴿ **وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾ (الأحزاب:٥) والآيات التي تؤكد أن القلب موطن أقوى القيم والمبادئ والمشاعر التي يعيش عليها الإنسان ويعيش بها



الإنسان كثيرة، فلا عجب أن يعطي الله سبحانه وتعالى القلب أهم ما ننسبه للعقل من صفات وهي الفهم والوعي والإدراك فيقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد:٢٤) ولم يقل أم على عقول أقفالها وقوله تعالى: ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة:١٢٧) ولم يقل صرف عقولهم، أما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾(الحج:٤٦) فيتأكد ورود العقل هنا بمعنى التفكير والتأمل والوعي.

فإذا عدنا إلى حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «**استفتِ قلبك، واستفت نفسك: البر ما اطمأنت إليه النفس، و الإثم ما حاكم في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك**» [رواه أحمد] وجدنا أنه يجعل من القلب «دليل» الحقيقة و«شعاع» المعرفة، ويجعل من «مشاعر» الإنسان وليس من «حواسه» انطلاق رؤية «البصيرة» التي تتجاوز رؤية «البصر» فكان قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج:٤٦)، ومن هنا كان القلب مصدر تقوى الإنسان وليس عقله، لأن خاصة العقل قد أصبحت شيئا واحداً من مهام القلب، فإذا كان العقل يقوم بمهمة القدرة على «التمييز»، فإن القلب الذي يختار الأجمل والأصح والأحق، واختيار القلب العامر بالإيمان فيه أغلب الأحوال الصواب






لأنه يرى بالبصيرة، واستفتاء القلب العامر بالتقوى يؤدي إلى الحق الصحيح الصريح الذي لا يؤدي إلى خلاف مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

والإسلام دين الفطرة، لهذا خلق الله بيننا أناساً يرون أبعد مما تراه أبصارهم، ويشعرون بأبعد مما تدركه حواسهم وتلك «فراسة المؤمن» التي حذر منها رسول الله ﷺ الذين لا يفقهون وقال: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله**» [رواه الترمذي].

الآيات التي تذكر «العقل» في القرآن الكريم كثيرة ولكنها في مجملها تذكره بمعنى الدعوة للتأمل والتفكير والعلم والإدراك.. مثل قوله تعالى: ﴿ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ (الحديد:١٧) وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (الرعد:٤) وقوله تعالى: ﴿ **وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ (الأنعام:٣٢) وفي معان أخرى يرتبط العقل بالعلم، والعلم وعي يقود إلى تعميق الإيمان مثلما نجد في قوله تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** (٤٣) ﴾ (العنكبوت:٤٣).

وقد اختلف العلماء في ماهية العقل وموضعه بهذه المعاني فقيل محل العقل «الدماغ» وهو قول أبي حنيفة. ويرى آخرون أنه في القلب كما رُوي عن الشافعي بدليل قوله تعالي: ﴿ **فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** ﴾(الحج:٤٦) وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن**





















كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ (ق:٣٧) وقلب هنا بمعنى «عقل»، وقد آثر بعض أهل المعرفة الجمع بين الرأيين فقالوا «العقل جوهر مضيء خلقه الله عز وجل في «الدماغ» وجعل نوره في «القلب» يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة» ويضيف آخرون إلى هذا المعنى أن العقل «نور وضعه الله في القلب كالنور في العين وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود، وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور، وعمى القلب كعمى البصر» وذلك مستمد من قوله تعالى: **﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾** (الحج:٤٦).

وفي هذا الإطار جاءت أحاديث الرسول ﷺ تتحدث عن العقل على أنه «بصيرة» القلب أو «شعاع» يسلط ضوءه على ما خفي على الحواس لمسه، وعلى العقل الذي في الدماغ إدراكه .. ولكن هناك أموراً لا يمكن الشعور بها إلا بالقلب المطمئن بالإيمان، قلب تقود فيه «البصيرة» مسيرة «البصر».

فإذا كان العقل بمعنى البصيرة وعمل الناس بهدي بصائرهم لا أبصارهم لكملت لهم سعادة الدنيا والآخرة ولعرفوا حقيقة الأشياء لا كما تبدو لهم في «مظهرها»، ولكن كما تبدو في «جوهرها»، ولما اغتر أحد بما هو زائل من نعيم الدنيا، ولهان ما يتقاتل عليه الناس من سلطان وجاه ومال، ولآثروا «متع الشعور» على «لذات الحواس»

وذاقوا «حلاوة الإيمان» في أفضل الأعمال التي يهدي إليها العقل، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «**قلت يا رسول الله بم يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: بالعقل. قلت: وفي الآخرة؟ قال: بالعقل. قلت: إنما يجزون بأعمالهم، فقال ﷺ: يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل؟ بقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون**» [رواه الهيثمي في الزوائد: مسند الحارث]، وعن سعيد بن المسيب أن عمر وأبي بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: «**يا رسول الله من أعلم الناس؟ فقال: العاقل، قالوا: فمن أفضل الناس؟ قال: العاقل. قالوا: فمن أعبد الناس؟ قال : العاقل**» [أخرجه ابن المجبر]، وفي المعنى نفسه يقول عليه الصلاة والسلام: «**إنما يرتفع العباد غدا في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم**» [أخرجه ابن المجبر والترمذي] وبالعقل يتم الإيمان، لأن الإيمان يهدي إلى الحق، ومعرفة الحق تقود للعمل به لهذا يقول ﷺ: «**ما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله**» [أخرجه ابن المجبر].



الجمال والنقاء والشفافية

يضيع بعض الناس أو الكثير من الناس زهرة أعمارهم وينفقون شقاء حياتهم على شهوات بطونهم وفروجهم، معتقدين أن في ذلك سعادتهم، بل يذهب هؤلاء إلى أن ذلك أعظم ما يمكن أن يظفر به الإنسان من متع في حياته الدنيا. وأصحاب هذا المبدأ الخطير نجدهم غالبا - إلا من رحم الله - يسرفون في التماس هاتين الشهوتين إلى درجة يتجاوزون فيها حدود الحلال إلى الحرام.

إن شهوة الجنس التي إذا ما ترك لها العنان لا يروي طمعها أو ظمأها كل ينابيع الأرض، حتى تدمر صاحبها وتأتي على أغصان شبابه فتقوضها، وزهرة شبابه فتعتصرها حتى يذوي ويصبح حطام إنسان أو هباء منثورا.

وينطبق الشيء نفسه على المسرف في إرواء شهوة البطن التي كلما استجاب الإنسان لهواها اتسعت مطامعها حتى يصبح الإنسان عبداً لها فتقوض عليه عقله، وتهلك صحته وتخل بتوازنه، فالصلة بين الذهن والبطن معروفة، فالإنسان لا يستطيع أن يفكر تفكيراً سليما وهو ممتلئ البطن، وحقائق الحياة والتاريخ تشعر أن الذين قدموا للإنسانية أعظم الإبداعات الفنية لم يكونوا يوما من المتخمين، ولم نعرف أن أحدا منهم كان أكولا، بل كان أكثرهم لا يملكون ثمن

ألـذ مـا يشـتهيه مـن طعام، وليس عجبا أن نقول: إن عضات الجوع والألم كانـت وراء إشـعال قـرائح بعض المفكرين الذين كتبوا أحسن نـتاجهم الفكـري وراء غياهـب السـجون أو وهـم يتضوَّرون جوعاً ويحترقون ألما، ولنا نحن المسلمين في حكمة الصوم درس وعبرة.

إن سعادة الإنسان في ذاته وكنزه في قناعته، وإن أعظم خلق الله هـو ذلـك الـذي يملـك عـلى نفسـه شـهواتها، فقـد كان شعار أحد المفكرين يضعه دائماً أمام مكتبه «الطعام القليل والفكر الكثير أعظم مـتع الحـياة» وقـال آخـر: «إن أعظم أيام حياتي هي تلك الأيام التي أتغلب فيها على شهواتي».

والحقـيقة إن الانتصـار على الشهوة أعظم انتصارات الحياة، إذ يشـعر فـيها الإنسـان انه ارتقى إلى قمة إنسانية، فالشهوة هي القاسم المشترك بين الإنسان والحيوان، فما أكثر إنسان في الاستجابة لشهواته إلا تدنى لمستوى الحيوان، وما حاول إنسان ضبط شهواته والانتصار علـيها بإعلائهـا إلى السلوك السوي إلا وارتفع بإنسانيته، فالحيوان لا يسـتطيع ضـبط شـهواته ولا كبح جماحها لأنه لا يتمتع بما وهب الله الإنسـان مـن عقـل، فـالعقل مسـؤولية وأمانة حملها الله الإنسان من فـوق سـبع سمـاوات، فإذا ترك الإنسان يوما هذا العقل زال الفرق بينه وبين الحيوان، لهذا وصـف الله سبحانه وتعالى فريقا من الناس في كـتابه العزيز بأنهم كالأنعام بل هم أضل ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (الأعراف:١٧٩).







إن حرص الإنسان على صحته بالاعتدال في كل شهواته مدعاة لسلامة روحه وعافية بدنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إليك انتهت الأماني يا صاحب العافية**» [رواه الطبراني في الأوسط والشهاب في مسنده]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لو رأيت ليلة القدر ما سألت الله إلا العفو والعافية».

والإسلام دين واقعي عقلاني روحاني لا ينكر على الإنسان الاستمتاع بشهواته والاستجابة لها، لكن باعتدال وتوازن، فديننا ينهى عن الإفراط ويمقت التفريط، دين الوسطية ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ (البقرة:١٤٣)، وقد حذر الله سبحانه وتعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ** ﴾ (النساء:٢٧). وحدد رسوله ﷺ مقدار ما تملأ به البطن «**فثلث لطعامك وثلث لشرابك وثلث لنفسك**» بَيَّن ﷺ أن المعدة بين الداء، وكذلك الجنس فهو مجلبة المتعة ومجلبة الألم.

وما تسامى إنسان على شهواته إلا وشعر بأنه يصعد بروحه إلى عالم الإنسان الحق، وما خضع مخلوق لشهواته إلا وأحس بثقل الطين في جسده يجره إلى وحل الأرض، ومع ذلك فهناك كثير من الناس يصرون على الارتكاس في الوحل ويفضلونه على السمو إلى عالم الجمال والنقاء والشفافية.

نصف الإيمان

يقول علماء السلف: الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر، وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص:٤٤) بكى وقال: وا عجباه! أعطى الله وأثنى، أي هو الذي يلهم الصبر وهو الذي يثني على صاحبه. وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر.

والصبور يعده الله بأحسن الجزاء: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٦٩)، وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ (القصص ٤٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:١٠)، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٦).



وتحدث الرسول ﷺ عن الصبر وأجره وصلته بالإيمان وحث أمته عليه فقال: «**الصبر نصف الإيمان**» أخرجه أبو نعيم من حديث ابن مسعود. وقال الرسول ﷺ في حديث عظيم ينصح فيه أمته: «**من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطي حظه منها لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إليّ من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم. ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً وينكركم**





أهل السماء عند ذلك، من صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وسئل رسول الله ﷺ مرة ما الإيمان فقال: «**الصبر والسماحة**» وقال ﷺ: «**الصبر كنز من كنوز الجنة**»، وهذا كله يعكس عظمة أجر الصبر في الإسلام.. الصبر على المكاره.. ذلك لأنه أفضل الأعمال عند الله سبحانه وتعالى يصعب أداؤه.. أو كما قال الرسول ﷺ «**أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس**».. وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «تخلق بأخلاقي وإن من أخلاقي اني أنا الصبور» إذ لا يصبر أحد صبر الله على عباده.. وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال: «**أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا فقال عمر: نعم يا رسول الله. قال: وما علامة ايمانكم؟ قالوا: نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء. ونرضى بالقضاء فقال** ﷺ: **مؤمنون ورب الكعبة**». وقال ﷺ: «**لو كان الصبر رجلا لكان كريماً والله يحب الصابرين**». [أخرجه الطبراني من حديث عائشة].

المعادلة الصعبة في حياة المسلم

قلة من الناس هم الذين يستطيعون إخفاء همومهم ومشكلاتهم، والأقل هم الذين يستطيعون الصبر على الألم والبلاء ومصائب الدنيا، فما أكثر الذين يشتكون من النسيم إذا مسَّ أثوابهم، وما أكثر الذين لا يطيقون أذى ساعة أو مرض يوم، وما أكثر الذين يثرثرون في كل وقت لكل من يلقون بمعاناتهم وآلامهم وأمراضهم، وقد تزور أحد هؤلاء فما أن تجلس إليه حتى يروي لك تاريخ أمراضه، ويستعرض معك أدويته، ويفتح لك ملفات معاناته، فتتركه وأنت تشعر بالمرض والأسى، وكنت دخلت عليه سليما معافى!!




والأسوأ من هؤلاء جميعا هم هؤلاء الذين يبالغون في وصف آلامهم ويسرفون في إظهار أحزانهم ويضخمون معاناتهم استدرارا لعطف الآخرين عليهم، وكسب مودتهم، وهذا من أوضع الأثمان التي تقدم لكسب العطف والمودة.



أصبح الصبر في هذا العصر عملة نادرة حين أصبحت التقوى زينة يتجمل بها بعض الناس لا إيمانا ينعكس على العمل والسلوك. ومن هنا ربط الله سبحانه وتعالى الصبر بالتقوى، فلا يصبر بحق إلا تقي بحق، فالتقوى تعلم الصبر، والصبر ثمرة من ثمار التقوى، فكان



ذلـك عند الله سبحانه وتعالى من عزم الأمور كما جاء في الآية ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمـــران:١٨٦) فتتشـــكل بهـذه الآيـة تلـك المعادلـة الايمانـية الصـعبة في حياة المسلم المعاصر: تقوى + صبر = عزم الأمور.

وتـندرج تحـت هـذه المعادلة القرآنية عشرات الأحاديث النبوية الـتي تؤكـد حقيقـتها، أحاديـث لـو أدركهـا المسلمون وعملوا بها لما اشـتكى مخلـوق مـن أذى أو مصيبة أو مشكلة، يقول رسول الله ﷺ «**يقـول الله عـز وجـل إذا ابتليـت عـبدي ببلاء فصبر، ولم يشكني إلى عـواده أبدلـته لحمـاً خـيرا مـن لحمه، ودماً خيرا من دمه، فإذا أبرأته أبـرأته، وإذا توفيـته فـإلى رحمـتي**» (أخرجه مالك في الموطأ). وقال داود عليه السلام: يا رب ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضـاتك؟ قـال: جـزاؤه أن ألبســه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا وقـال تعـالى مـن فـوق سـبع سماوات ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمـر:١٠) وقـال داود لسليمان عليهما السلام: يستدل عـلى تقـوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فـيما قـد نـال، وحســن الصـبر فيما قد فات»، وقال نبينا ﷺ : «**من إجلال الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك**» وجاء في أخبار السلف أن امرأة عثرت فانقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها:



أما تجدين الوجع؟!

قال أحد الصالحين: الصبر الجميل هو ألا يعرف صاحب المصيبة من غيره، ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت وساء، ولأن البكاء توجع القلب على الميت، فإن ذلك مقتضى البشرية، ولا يفارق الإنسان إلى الموت، ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه، فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: «**إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**». وأوحى الله إلى أحد أنبيائه «**إذا أنزلت بك بلية فلا تشكني إلى خلقي واشكُ إليَّ كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت فضائحك ومساوئك**».

عن أنس عن النبي ﷺ : «**ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر لها الرجل، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة، وخطوة إلى صلة الرحم**» (ابن ماجة بإسناد جيد).




وما أجمل هذا الحديث الشريف وأعظمه الذي يجمع كل الخصال الحسان التي يحتاجها المسلم في حياته اليومية.

صدق رسول الله ﷺ فما أحوجنا إلى هذا الحديث، ولو عملنا بما جاء فيه وحده لفككنا عقدة المعادلة الصعبة في حياتنا المعاصرة!



كيف يجرؤ هؤلاء على الوقوف بين يدي الله ؟

يمارس بعض المسلمين العبادة على أساس أنها المفتاح الوحيد للجنة، ويختصر هذا النوع من الناس الإسلام في المواظبة على الصلاة والصيام والإكثار من النوافل غير مبالين بما يجري حولهم للمضطر والمعسر والمريض والمحتاج والبائس الفقير، فلا مواساة ولا رحمة ولا اهتمام ولا تفقد لأحوال إخوانهم المسلمين.

بل إن بعض هذا النوع من المسلمين يغالي في ممارسته الأنانية للعبادة فنجده لا يهتم إلا بنفسه في أداء العبادات، فإذا كان مواظباً على أداء الصلوات جماعة في المسجد لا يبالي بدعوة أهل بيته إليها، ولا يأمر بمعروف فيمن حوله، ولا يتحرى مواضع الانحراف فيهم لينهى عن منكر، فيعيش في رهبنة أقرب للنصرانية منها للإسلام.

والإسلام دين اجتماعي، ولا رهبنة في الإسلام، والله يغفر فيما بينه وبين العبد لا ما بين العبد وبين إخوانه. وأخطر أنواع المتدينين على الإسلام هم هؤلاء الذين ينسون أن الإسلام منهاج حياة متعددة الأوجه، وأهم هذه الوجوه جميعاً جانب التعاطف والتواد والتراحم والتواصل بين المسلمين، وديننا يحفل بعشرات الأحاديث النبوية التي يحث فيها الرسول ﷺ على التعاطف والتعاون، أن تزور مريضاً، أو تتفقد حال فقير، أو تسأل عن جار، أو تقضي حاجة محتاج تجعلك أقرب إلى الله من أن تعكف وحيداً تؤدي النوافل، وقد نقض ابن عباس اعتكافه في المسجد ليسعى في قضاء حاجة مسلم

وقال هي أفضل عند الله من اعتكاف عشر سنين.

وقـال ﷺ : «**أنا أقف على ميزان من يسعى في خدمة أخيه فإن رجـح وإلا شفعت له**». وكلنا يذكر الحديث العظيم الذي درسناه في المـدارس، حديـث يصـف فيه الرسول ﷺ مبدأ التعاون والتعاطف: عن الشعبي عن النعمان بن بشير – رضي الله عنه – قال رسول الله ﷺ : «**مـثل المؤمـنين في تـراحمهم وتوادهـم وتواصلهم كمثل الجسد الواحـد إذا اشـتكى مـنه عضـو تداعـى لــه سـائر الأعضاء بالسهر والحمى**».

إن هـذا الحديـث وحـده يختصـر فلسـفة الإسـلام الاجتماعـية والإنسـانية، فليعـلم أصـحاب القلـوب الأنانـية القاسـية أن العـبادة وحدها لا تكفي..

إن المكارم والمعــروف أوديةٌ — أحلَّك الله منها حيث تجتمــعُ

من لم يكن بأمن الله مُعتصماً — فليس بالصلوات الخمس ينتفع

إن العـبادة بـين العـبد وربه وقد يغفر الله له تقصيره فيها، لأن الله غفـور رحـيم، لكن تقصير المسلم مع أخيه المسلم.. وتقصيره في أداء حـق المجتمع المسـلم الذي يعيش فيه.. وكذلك تقصيره مع أهله ورحمـه وجـاره ومـع الفقـير والمعسـر والمحتاج يعد في ميزان الإسلام إسقاطاً لأوجب واجبات هذا الدين.

كيف يجرؤ المسلم أن يقف بين يدي ربه في صلواته يطلب رحمته ويطمع في عفوه وهو لم يرحم إخوانه من المسلمين الذين يحتاجون لما يقـع تحت مقدرته.. كيف يجرؤ أن يقف بين يدي الله هؤلاء الذين لم

يخطر ببالهم يوماً تفقد أحوال الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.. كيف يخشع قلب من لم يمسح يوما دمعة يتيم أو يسع يوماً في خدمة محتاج أو رد مظلمة مقهور أو تفقد حال جار مستور.

ليعلم هؤلاء أن المسلم لا يدخل الجنة بكثرة عبادته بل برحمة الله، وأن رسول الله ﷺ يقول في كل آن: «**من لا يرحم لا يُرحم**»، فهل آن للقلوب القاسية أن تلين.

وصف الله عز وجل نفسه في كتابه العزيز: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (البقرة:١٤٣). والأحاديث الشريفة التي تحث على رحمة العباد والاهتمام بشؤون المسلمين كثيرة، قال رسول الله ﷺ: «**.. الرحيم الذي يرحم الناس**» (رواه أبو يعلى والطبراني). وعن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: «**إن كنتم تريدون رحمتي ارحموا خلقي**» (رواه أبو محمد بن عدي في كتاب الكامل).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أبدال أمتي لن يدخلوا الجنة بالأعمال، ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس، وسلامة الصدور، والرحمة لجميع المسلمين**».

.. نعم كيف يجرؤ هؤلاء على الوقوف بين يدي الله وطلب عفوه وغفرانه ورحمته.

ما لا يخطر لك ببال!

لم يترك رسول الله ﷺ صغيرة ولا كبيرة في العلاقات الإنسانية إلا رعاها وتحدث عنها.. حتى شهوات الناس واحتياجاتهم المادية والمعنوية، العاطفية والحسية لها عند نبي الإسلام ﷺ ألف حساب، الأشياء الصغيرة التي لا تخطر في بال لها عند محمد ﷺ ألف تقدير بل تراه يقدمها على الفروض والواجبات والعبادات التي نزل الأمر فيها من فوق سبع سماوات.

لماذا ؟

في هذا الدين لا يريد الله منك أن تقدم على أمر من عباداته إلا وقد فرغت من كل أمور دنياك، وأصبحت خالصاً لله وحده تعبده بكل جوارحك، وكل قلبك معه، فالأدب في دينك يأمرك أن تقدم الطعام وقضاء الحاجة والدخول على الزوجة، وكل ما يمكن أن يشغل بالك مهما كان تافهاً على الصلاة، لا لأن الصلاة أقل أهمية، بل الصلاة أكبر أهمية من كل ذلك، وتحتاج إلى أن تتفرغ لها كلياً غير مشغول البال. جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ : «**إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة فابدأوا بالعشاء ولا يعجل حتى يفرغ منه**». لماذا؟ لأنك إذا قمت من عشائك للصلاة ولم تنل منه كل ما تريد نفسك ربما شغلتك هذه






النفس عن التركيز في أداء الصلاة!! وتجد لها في الحديث الجليل أكثر من نص تدلل على أهميته وعلى مغزاه، إذ جاء في الصحيحين أيضاً من حديث أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قدم العشاء فابدأوا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب ولا تعجلوا عن عشائكم**».

ولم تعرف البشرية ديناً خفف عن أهله كما خفف الإسلام عن المسلمين، ولا نبياً أبر بقومه مثل رسول الله ﷺ فهذا هو يرحمهم ويرأف بهم عن الصلاة في المساجد في الليلة الباردة، ففي الصحيحين عن طريق نافع قال: **أذن ابن عمر في ليلة باردة بضع بنان ثم قال: صلوا في رحالكم (أي بيوتكم) فأخبرنا أن رسول الله ﷺ يأمر مؤذناً يؤذن ثم يقول على إثره: «ألا صلوا في الرحال في الليلة الباردة أو المطيرة في السفر»**.




ويراعي هذا الدين احتياجات الناس العاطفية ألف مراعاة، ويحسب لها في الإسلام كل حساب حتى ولو لم تخطر لهم على بال. أخرج البخاري ومسلم من حديث مالك بن الحويرث - رضي الله عنه - قال: «**أتينا إلى النبي ﷺ ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا - أو اشتقنا - سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه فقال:**



ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم..».

ويقدم رسول الله ﷺ نموذجاً لأمته لتتعلم منه وتتأسى به لكيلا يقدم مسلم على عبادة من العبادات إلا وهو خالص الجوارح. جاء في البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «**غزا نبي من الأنبياء فقال: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن، ولا آخر قد بنى بنياناً ولما يرفع سقوفها، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو منتظر ولادها..**».

ويريد رسول الله ﷺ أن يقول لأمته إن العقد على امرأة مدعاة للتفكير فيها، والانشغال ببناء بيت مدعاة للتفكير في تمامه، وتربية الأغنام مدعاة للاهتمام بحالتها وولادتها، فهل يستطيع صاحب هذه الحالات أن يتوفر بعقله وقلبه للخروج للجهاد الذي يتطلب غياباً طويلاً ؟! وذلك لأن مبدأ العبادة والعمل في الإسلام: «**إذا عمل ابن آدم عملاً فليتقنه**» والإتقان يحتاج إلى فراغ البال من كل ما يمكن أن يشغله، وحال الكثير من المسلمين اليوم يخالف هذا المبدأ العظيم الذي يعتبر في النهاية إتقان الإنسان لعمله عبادة يؤجر عليها.




فأنت تجد من يطارد إلى الصلاة قبل إتمام طعامه، ومن المسلمين من يدخل الصلاة وهو «يدافع الأخبثين» - البول والغائط - حيث جاء فيه حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه مسلم وأبو داود قوله ﷺ: «**لا صلاة بحضرة طعام ولا هو يدافعه الأخبثان**» كما تجد الكثير



من مسلمي اليوم يذهبون لأداء فريضة الحج وكل منهم مشغول البال بكامله بأمور دنياه التي تركها قبل تمامها، وأعجب لشباب يهرعون للحج أو للجهاد ويؤجلون دخولهم على زوجاتهم اللاتي عقدوا عليهن ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وأعرف من المسلمين من إذا ولاه الله على أمر من أمور الناس لا يراعِ حقوق عماله أو موظفيه المعنوية واحتياجاتهم العاطفية؛ فلا يأذن لهم بالسفر لأهليهم، ولا يقدر حاجتهم للراحة والاستجمام وكأنهم ليسوا من البشر، بل إن بعض هؤلاء لا يهمه أبداً إن كان من يعمل معه يؤدي عباداته أم لا، فلا يذكره بها حرصاً منه أن يخدمه حتى في أوقات صلاته، فيخرج وحده يؤدي الصلاة ويحرص عليها، ويحسب أنه بذلك قد سلك طريقاً إلى الجنة يدخله وحده دون الناس!!

سلوك يمارسه المسلمون اليوم في حياتهم اليومية يبعدهم عن الإسلام، وعن رحمة الإسلام، وعن تقدير الإسلام للإنسان ومراعاته له، ومع ذلك يقولون قدوتنا رسول الله ﷺ وهم يخالفونه في معظم ما يفعلونه، ويرفعون أكفهم بالدعاء ويقولون كيف لا يستجاب لنا؟ يطلبون رحمة الله وهم أبعد ما يكونون عن التراحم والتعاطف والتقدير فيما بينهم؟!

فقد علمنا رسول الله ﷺ كيف نتصرف في كل صغيرة وكبيرة وفي ما لا يخطر لنا ببال.

إننا بحاجة إلى التأسي بصدق برسول الله ﷺ في كل أفعاله، والعمل بأقواله لأن فيها بناء النفوس، والنفوس خراب، لأننا نتحدث عن الإسلام أكثر مما نعمل به.







يحرصون على العبادة ويأكلون حقوق العباد !

هناك نوع من البشر تمتد أنانيتهم إلى كل شيء في حياتهم، وتنعكس هذه الأنانية على كل سلوك يسلكونه، فلا يستطيعون التخلّي عَنْ أنانيتهم حتى وهم يمارسون أعظم عمل يمكن أن يقوموا به وهو عبادة الله، وإذا وجدت الأنانية في حياة إنسان لا يعرف الله، ولا يدرك الحق فله العذر لجهله حتى يعلم، ولعصيانه حتى يتقي، ولكنها عندما تتحول إلى منهج حياة وتفرض نفسها حتى على فهم الإنسان لدينه وعلى سلوكه مع ربه ومع عباده فذلك ظلم الإنسان لنفسه.

لقد رأيت في حياتي أناساً يعبدون الله ويظهرون من خشيته ومن تمسكهم بأداء الفرائض في أوقاتها في المساجد، والحرص على السنن والمعرفة بحدود الله ما يجعل المرء يحتقر عبادته إذا قورنت بما يراه من هؤلاء، ولا يملك إلا أن يحسن الظن بهم، بل يبالغ في إحسان الظن بهم، ثم نرى بعد ذلك من هذا النوع عجباً، نرى من لا يهتم في عباداته إلا بنفسه لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، فلا يهمه أن يصلي من حوله أو لا يصلون، ولا يهمه أن يوجه بكلمة خير ربما تنفع غيره، وقد يكون بعض هذا النوع من أرباب العمل فلا يوجهون من يعمل معهم لما هو خير لهم في آخرتهم، بل كل

همهـم أن يخدمهـم هؤلاء وأن يستمروا في خدمتهم حتى لو ضاعت عليهم أوقات الصلاة، وكأن هؤلاء ليسوا من المسلمين، وليسوا أهلا للجنة التي يعتقد هذا المسكين أنه يستحقها وحده، بل نجد من لا يأمر أهلـه بالصـلاة وبالمعـروف، وهـو مـن المواظـبين عـلى الصـلاة في المساجد.

وهـنا نـوع آخر من المسلمين .. يفهمون الدين بأنه العلاقة بين العـبد وربـه، فيعتنون بعلاقتهم بربهم ويضربون المثل الأعلى في أداء الصـلوات والـنوافل والدعـاء، والامتـناع عن كل ما يسخط الله من الفواحش والمحرمات ويعتقدون أن هذا وحده كفيل بضمان رضا الله عـنهم، ويمشـون عـلى الأرض وكـأنهم قـد وضعوا مفاتيح الجنة في جـيوبهم! فـلا يـبالون بعلاقـتهم بعباد الله، ولا يقيمون وزناً للعهود والحقوق والمواثيق التي بينهم وبين الآخرين، بل بعضهم لا يقيم وزناً لـا أمر الله به من حسن الخلق في التعامل الذي أمر الله به مع عباده، فـإذا وقفـت أسـتعرض صـلة هذا النوع بربه وأستعرض صلته بعباد ربـه أجـد العجب من النقيض إلى النقيض، علاقة قوية متينة مع الله وعلاقـة هـزيلة مـع عباد الله، أداء كامل لحقوق الله وتفريط كامل في حقـوق عـباد الله خاصة إذا كان هذا النوع من العباد الذين بسط الله لهم الدنيا ومكنهم من أرزاق بعض عباده الذين يعملون لديهم.





كـيف يسـتوي الأداء الكامل لحقوق الله في العبادات والتفريط

في حقـوق المعـاملات مع عباده؟ سواء كانت هذه الحقوق مادية مثل الديـون المسـتحقة الأداء أو الرواتـب المسـتحقة، آخـر كـل شهر، أو حقـوق معـنوية مـثل الوفـاء بـالعهود والالـتزام بالمواثـيق والعقـود والوعـود القائمـة على الثقة وكلمة الشرف، لأن كلمة المؤمن كتاب وميثاق وعهد.

فـإذا كان هذا النوع من البشر يعتقد أن الله لا يهمه منهم إلا أداء حقوقـه وهـي العـبادات، ولا يهمـه ما يكون بينهم وبين عباده، فإنهم مخطـؤون لا يفقهـون شـيئاً مـن جوهـر الديـن، إذ لم يحرص دين على حقوق الناس ويفصِّل فيها مثل الإسلام، بل إن الله سبحانه وتعالى فتح بـاب العفـو والمغفـرة أمـام المقصرين في حقوقه، ولكنه سبحانه لم يعط نفسـه حـق التسـامح في حقـوق عباده، وأنه كما بين الإسلام أن العبد ليـتجاوز حسـابه مـع الله ويبقى ما بينه وبين الناس حائلاً دون دخوله الجنة.





إن الحقـوق الماديـة والمعنوية سواء في الإسلام، فليس من الدين في شـيء الاسـتهانة بـالحقوق المعـنوية للـناس، ألم يقـرأ هؤلاء قوله تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ (المائدة:١) ألـم يجعل الله سـبحانه إخـلاف الوعـد مـن علامات النفاق؟ والوعد في أبسط معانـيه مـا يحدث بين الناس في علاقاتهم الاجتماعية وأكبر معانيه ما يحدث بينهم من اتفاقات عمل مكتوبة أو شفهية.



ألم يجعل الله سبحانه وتعالى الكذب في درجة أسوأ من الزنا، كما جاء في الحديث الشريف: «**أيزني المؤمن؟ قال رسول الله: نعم ثم قيل: أيكذب المؤمن؟ قال رسول الله لا**» والمعنى في مسألة الزنا يفسره قوله ﷺ : «**لا يزني الزاني وهو مؤمن**» أي أن الإيمان يرتفع عن الزاني ثم يعود إليه.

فأين إيمان الذين يمتنعون عن الزنى، ولا يمتنعون عن الكذب هروباً من أداء الحقوق والوفاء بالعهود؟!

لقد أعطى الله فسحة في التسامح في كل تقصير، أو ظلم إلا ظلم الناس في كافة أشكاله المادية والمعنوية. أن الله يغار على عباده، ولا يسمح لأحد أن ينال منهم، وهو المنتقم لهم في الدنيا والآخرة.



وفي هذا العصر الذي ظهر فيه بعض الناس من هذا النوع وهم قلة -ولله الحمد- يظنون أنهم بأداء حقوق الله من ناحية «العبادات» في منجاة من عذاب الله حتى ولو مطلوا حقوق عباده ونسوا أن الله يفضحهم من فوق سبع سماوات بقوله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا** ﴾ (آل عمران: ٧٥) وقوله ﷺ : «**مطل الغني ظلم**» وليسمع هؤلاء هذا الحديث المجلجل العظيم في قوله ﷺ: «**لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يعاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**» (أخرجه مسلم).





فليعلم هذا النوع من البشر أن فهمهم للدين قاصر، وأن ممارستهم للأنانية للعبادة لا تحقق لهم ما يريدون من نعيم الآخرة، وأن رضا الله عنهم لا يتحقق إلا بالأداء الكامل الصادق المخلص لحقوق الله في العبادات، وحقوق الناس في المعاملات، وأن الله يتسامح في حقوقه ولا يتسامح في حقوق عباده.



ويظنون الأمانة حفظ المال فقط !

يكثر الحديث في هذا العصر عن ضياع الأمانة بين الناس، ويبحث رجال الأعمال وأصحاب المعاملات المالية عن الرجل الأمين، وإن كان قليل علم وخبرة، فنحن نعيش في عصر أصبح العلم فيه كالماء والهواء ميسراً لمعظم الناس، لكن لم توجد بعد تلك المدرسة التي تزرع في نفس الإنسان الأمانة عندما يفقد مؤهلات القدرة على حملها، ومع ذلك فإن هذه الأمانة.. أمانة المحافظة على حقوق الآخرين المادية وأداءها كاملة غير منقوصة يعد من أخف أنواع الأمانات التي أنيط الإنسان بحملها، لأنك قد تجد اليوم من تأمنه على مال لكنك تجده بعد ذلك يخون في الشرف، ويخون في إخلاص العمل، ويخون في الصدق ويخون في كل ما ليس له علاقة بالمال والقيم المادية، ويظل يعتقد في نفسه أنه من أكثر الناس أمانة.




وهذه - بحق - من كبرى المعضلات التي أدت إلى تخلف المسلمين عن قيم دينهم الكامل العظيم. فما تلوت قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأنفال:٢٧) إلا وتذكرت ضياع الأمانات في مجتمعاتنا المسلمة. تذكرت الموظف الذي لا يؤدي عمله بإخلاص فيختلس من وقت العمل كلما غاب الرقيب، وتذكرت المدير الذي يستغل



موظفيه ووظيفته لأغراضه الخاصة مهتكاً عرض الأمانة التي ولّيَ عليها، وتذكرت التاجر الذي يحلف كذباً لينفق بضاعته، ويحتال بكل الوسائل على الشرع ويسمي ذلك «شطارة» وكان قد عاد لتوه من صلاة عصر أو مغرب.. وأتذكر التلميذ الذي يغش في دراسته ويخدع أستاذه بالكذب والتمويه عند تقصيره.. وأتذكر المواطن الذي إذا وقف أمام إشارة المرور التفت يميناً ويساراً فإذا لم يجد شرطياً مرق.. وأتذكر المواطن الذي يفسد الزرع في الحدائق ولا يشعر بالغيرة على الأملاك العامة التي يعتبر شريكاً فيها وفي ملكيتها.

أليس هذا كله وغيره بعشرات ومئات الأمثلة من الأمانات الضائعة في هذا العصر، وهي أمانات - للأسف - نجدها عند غير المسلمين ونعرفها ونتشدق بالحديث عنها كلما زرنا بلداً غير مسلم. إن العيب ليس في ديننا، فلم ينظم كتاب سماوي حياة الإنسان في كل صغيرة وكبيرة كما نظمها القرآن الكريم.. ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (النبأ:٢٩) وقال تعالى أيضاً: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام:٣٨) لكن كثيراً من المسلمين فرطوا في كتابهم وجهلوا القيم الأخلاقية التي فيه ولم يعملوا بالآداب السلوكية السامية التي حث عليها والتي جعل لها أجراً أعظم من أجر الصوام القوام، وتوقفوا في فهم الأمانة عند حدود حفظ المال والحقوق المادية

وغفلوا عن الحقوق المعنوية وهي أكثر وأعظم لأن كل معاملات الحياة تقوم عليها. نحن أولى الناس بأن نفقه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ (الأحزاب:٧٢).

وقد جاء في الأثر: «**يا ابن آدم عف عن محارم الله تكن عابداً، وارض بما قسم لك تكن غنياً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وصاحب الناس بمثل ما تريدهم أن يصاحبوك به تكن عدلاً، وكن صادقاً مخلصاً في كل شيء تكن أميناً**».

فهل نحن بحاجة إلى أكثر من هذه الصفات لنكون مسلمين أمناء؟

هذا هو معنى الأمانة الحقيقي في الإسلام، تلك هي حدودها الواسعة، فالمسلم مؤتمن على كل شيء في الحياة، مؤتمن على نفسه وأملاكه، ومؤتمن على أملاك الغير، ومؤتمن على الأملاك العامة، ومؤتمن على كل ما سخره له الله ما بين الأرض والسماء بأن لا يسيء استعمال أي شيء من كل ذلك قط إلا في حدود ما أحل الله بلا إفراط أو تفريط.






سعيدٌ ذلك الإنسان

عجيب أمر الذين يدعون أنهم يؤمنون بالله ويحمدون الله عقب كل صلاة ويشهدون أنه «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» ومع ذلك نراهم يأملون في غيره ويتكلون على عبد من عباده، ويعتقدون فيه من الصفات ما شهدوا بألسنتهم أنها لله وحده، وفي مقدمتها «التوكل» وبذلك حين يتكلون كلية على مخلوق بعينه يعتقدون أن أمراً بعينه لن يتم إلا به ناسين أن إرادة الله تسبق كل شيء وأي شيء. ألم يفقهوا قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة:٢٣) وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (الطلاق:٣) وقوله تعالى باقتدار وقوة: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال:٤٩).

وعزة الله إنه لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى حماه وحكمته، إنه لا يقصر عن تدبيره من توكل عليه، لهذا فإن الله سبحانه وتعالى يصدم هذا النوع من البشر بتذكيرهم بحقيقة يغفلون عنها في مواقف الهول والحاجة حين يلجؤون إلى غيره فيقول لهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف ١٩٤] وللذين يحطون من قدر أنفسهم أمام عباد مثلهم اعتقادا منهم أن بيد

هـؤلاء أرزاقهم كما اعتقد الجاهليون ذلك في أوثانهم قال الله العلي القديـــــــر **﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾** (العنكبوت: ١٧).

ومـن هـنا كانـت مكانة التوكل على الله عالية تقف على ذروة سـنام الإيمـان ووعد الله المتوكلين عليه بالجنة في صفوة أمته كما جاء في الحديـث الذي رواه ابن مسعود حيث قال ﷺ : «**أرأيت الأمم في الموسـم فرأيـت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم فقيل لـي: أرضيت؟ قلت نعم قيل: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغـير حساب قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون**».

وعـن البراء بن عازب رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : «**لو توكلـتم عـلى الله حـق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتعود بطاناً**».

وتحكـي كتـب التراث أنه في زمن هارون الرشيد حدثت مجاعة وضـاقت الحـال الاقتصـادية واشتد الكرب على الناس فأمر الخليفة بكـثرة الدعـاء وكسـر آلات الطـرب. وذات يـوم شوهد عبد يصفق ويغـني فكـان أمـره عجـباً. فسأله الخليفة لما تفعل ذلك دون الناس؟ فقـال إن سيدي عنده خزانة قمح وأنا متوكل عليه يطعمني منها. لهذا



أنا لا أبالي. فقال الخليفة: إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على الله أولى، فسلم الناس أمرهم كله لله وتوكلوا عليه فهو الرزاق ذو القوة المتين.

وقيل في تراث الأنبياء أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً».

ولكن علينا أن نقف طويلاً عند قول بعض العلماء: لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل؛ فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما كتب الله لك.

وذلك أمر الطماع في دنيا لا يشبع فيها إلا من رحم الله.. دنيا حال كثير من أهلها اليوم مثل حال نار جهنم التي كلما امتلأت قالت هل من مزيد!




سعيد ذلك الذي يحمد الله قولاً وفعلاً، وسعيد ذلك الذي يسبح لله بالحمد والشكر في كل حال.

فالحمد لله من قبل ومن بعد، وإلى الله ترجع الأمور.





فلنتعلم منه ..

يوجد بيننا نوع من الناس يعتقدون أنهم لا يخطؤون! وهم على استعداد للمراء والأخذ دون عطاء في الباطل أكثر من الحق لإثبات أن غيره هو دائما المخطئ، وأن آراءهم دائما صحيحة، وظنهم في الناس لا يجانب الصواب، وأحكامهم عين الحق، ويعتقدون أن كلامهم لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه !

وهذا النوع المسكين من الناس يعيشون في ظلام دامس، ويدورون حول أنفسهم في حلقة فارغة، ويحسنون الظن بأنفسهم أكثر مما تحتمله بشريتهم، وهذا الإسراف في حسن الظن بالذات يؤدي إلي تضخمها كما يقول علم النفس وإذا تضخمت الذات عانت من نفسها، وعانى كل من حولها منها، وهذا يؤدي حتما إلى ضعف في الإيمان.




الإنسان المؤمن يطلب عون الله وغفرانه وهدايته، والإنسان المؤمن يخطئ في حق ربه فيستغفره ويخطئ في حق الآخرين فيسعى للتسامح معهم، والإنسان المؤمن يقرأ في كتاب الله ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ**﴾ (الشورى: ٤٠) ويقرأ في حديث نبيه ﷺ «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**» يعرف الإنسان المؤمن هذا كله ويستوعبه، ويعمل به أما الذين يعتقدون أنهم لا يخطؤون فهم أبعد





خلق الله عن الحاجة لمثل هذه الآيات والأحاديث، ربما لا يدركون هذا، ولا يشعرون بخطر ذلك على إيمانهم ودينهم لأن هذا النوع من الناس قد يكون من المتدينين ومن المؤدين للصلوات والزكوات، وكافة ما يوجبه عليهم دينهم.

لهذا فإن هذا النوع الغافل من المسلمين بحاجة، إلى تذكير بحقيقة أمرهم، وربما يحتاج البعض منهم إلى صدمة نفسية «توقظ العُقد» المترسبة في أعماق اللاشعور. والحقيقة أن معظم الذين يعتقدون أنهم لا يخطؤون، إن لم يكن كلهم - يعانون من عقدة النقص والشعور بالدونية في أعماق أنفسهم لأمر من الأمور، أو لمعاناة تعرضوا لها في مرحلة من مراحل حياتهم لا يستطيعون استذكارها أو استظهارها إلى حالة الوعي بها، فتظل كما يقول علم النفس متوارية في الوعي الباطن أو في اللاشعور، فيكون الناتج لهذا الصراع أن تحاول الذات «الأنا» التستر باصطناعها حيلا دفاعية تمارسها على الآخرين في شكل هجوم، وأهم مبررات هذا الهجوم عدم الاعتراف بالخطأ، وإسقاط عيوبه على غيره، وهو ادعاء غير مباشر بالكمال.. ادعاء لا شعوري يريح الضمير من الإحساس بالتأنيب، ويمنع عقدة الشعور بالنقص من أن تطفو على السطح.

وهذا النوع من الناس يستطيعون معالجة أنفسهم بالعودة

الصادقة المخلصة لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فسيجدون فيهما ما يشرح الصدر، ويعيد الرشد، وينير البصيرة. سيتعلمون أن الحق يعلو ولا يُعلى عليه. وأن نبيهم محمد ﷺ اجتهد في أمور دنيوية وأخطأ في الرأي في ما لم ينزل فيه وحي وما ليس له به علم، وأثر عنه قوله ﷺ : «**أنتم أدرى بشؤون دنياكم**». وعاتبه ربه من فوق سبع سماوات في أكثر من موضع في كتاب الله. وكانت حياته أروع الأمثلة في التواضع وترجمة حقيقية لأمر ربه ﴿ **وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴿٢١٥﴾ ﴾ (الشعراء:٢١٥) وعاش يدعو المسلمين بالقول والعمل ويبشرهم بثمرة «خفض الجناح» المتمثلة في قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴿٨٣﴾ ﴾ (القصص:٨٣) .

وهاهو يرفع «التواضع» فوق العبادة ويعتبره أفضل أنواع العبادة فيقول: «**أفضل العبادة التواضع**» ويجب أن نلاحظ هنا أن العبادة المتمثلة في أداء الفرائض المكتوبة تعامل مباشرة مع الله أما العبادة المتمثلة في التواضع فإنها تتم من خلال التعامل مع عباد الله، وقد رفع الله درجة «عبادته» من خلال التعامل مع عباده بالتواضع على درجة «عبادته» من خلال التعامل معه بالفرائض حباً منه لعباده وغيرة عليهم.

وقـد ظل رسول الله ﷺ يؤكد على بشريته «**ولا ترفعوني فوق قـدري فـتقولوا في مـا قالـت النصـارى في المسيح، فإن الله عز وجل اتخذنـي عبداً قبل أن يتخذني رسولاً**». وأتاه ﷺ رجل فأخذته رعدة فقـال لــه: «**هون عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تـأكل القديد**». وكان ﷺ يرفع ثوبه ويخصف فعله، ويخدم أهل بيته، ولم يكـن متكـبراً، ولا متجـبراً، أشد الناس حياءً، وأكثرهم تواضعاً، وكان إذا حدث بشيء مما أنعم الله به عليه قال «**ولا فخر**» وقال ﷺ: «**إن العفـو لا يزيد العبد إلا عزاً، فاعفو يعزكم الله، وإن التواضع لا يـزيد العـبد إلا رفعـة، فتواضـعوا يرفعكم الله، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماءً فتصدقوا يزدكم الله**».

اللقاء المستحيل !

طالب العلم وطالب المال لا يشبعان كما جاء في حديث الرسول ﷺ لأن من شغل بأحدهما شغله عمن سواه، فصاحب المال إذا اشتغل بالعلم شغله العلم عن المال وربما أضاع ماله كله، وفي التاريخ شواهد على ذلك، وصاحب العلم إذا انشغل قلبه بحب المال باع العلم بثمن بخس وأضاعه، فالعلم والمال لا يقبلان لهما شريكاً والحياة فيها أهل العلم الذين ينسون في حبه كل شيء، ولا يستطيبون سواه وهم قلة في هذه الأيام، أما أصحاب المال الذين يفضلونه حتى على أنفسهم وأهليهم وكل الدنيا فهم كثر تزدحم بهم الحياة.

قال رسول الله ﷺ : «**هلاك أمتي في شيئين: ترك العلم وجمع المال**».



يقول الشاعر:

إني رأيت الناس في عصرنا　　لا يطلبون العلم للعلم

إلا مباهاة لامهابه　　وعدة للغش والظلم



لهذا فإن الجمع بين حب العلم والمال يندر إلا من رحم الله وأسبغ عليه عظيم فضله، فلكل من جامع المال وعاشق العلم مواهب من الصعوبة بمكان أن تجتمع في عقل واحد، وبناء عليه فإننا نجد أن معظم أرباب المال والثراء الأوائل - خصوصاً - كانوا من



العصاميين، ومن محبي العلم، وبالمقابل كان أعظم أهل العلم من فقراء الناس ومن أزهد خلق الله في الدنيا.

ويذكرني هذا بأثر يقول «من زيد في علمه نقص في رزقه ومن زيد في رزقه نقص في علمه» وسواء صح هذا أو لم يصح، فهو يطابق واقعا نعيشه بشواهد التاريخ، وبالشواهد المعاصرة، وهو أمر يؤكد للذين يبتغون المال من باب العلم بأن جهدهم ضرب من العبث، فالعالم الحق لا يطلب بعلمه ثراء، وإذا فعل ذلك أضاع علمه، وأهان نفسه لأنه سينتهي إلى خسارة العلم والمال معاً.

ولو علم هذا النوع من أهل العلم الذين يمرغون خد العلم في التراب باسترزاقهم به أمام أصحاب المال والثراء.. لو علموا أنهم يقللون من احترام هؤلاء للعلم وأهله، وأنهم لن يخرجوا مما يطمعون فيه إلا بالفتات لفكروا كثيراً.. لو تذكروا أن علمهم يبقى، وأن مال هؤلاء يفنى لأحجموا عن بيع علمهم في سوق المال، كان أصحاب المال في الأزمان التي عمر فيها الإسلام قلوب الناس يسعون متصاغرين بين أيدي العلماء.

وفي هذا الزمن الذي أدار الناس ظهورهم لأعظم ما في هذا الدين نرى العلم يقف متصاغراً منحنياً أمام المال - إلا من رحم الله بفضله - حتى ظن بعض أصحاب المال والثراء من الجهلاء أنهم

يستطيعون شراء العلم والعلماء بأموالهم فعلقت في مجالسهم أعلى الشهادات وحف بهم أصحاب العلم يسعون بين أيديهم بكل ما لذ وطاب من قصائد الشعر وجميل الكلام، وأصبح للأسف بعض أهل العلم من كماليات الزينة والمظهر في بيوت أصحاب المال.

عن الفضيل - رحمه الله - قال: «لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله، إذاً لخضعت لهم رقاب الجبابرة، وانقاد لهم الناس، وكانوا لهم تبعاً. ولكنهم أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا».

والعلم رأس مال يحرس صاحبه ولا يفارقه ولا يخشى عليه من ضياع، معه حيثما يكون، يسعفه كلما احتاجه، وفي أصعب المواقف، يروى في تراث السلف أن رجلاً نظر إلى امرأته وهي صاعدة في السُّلَّم، فقال لها: أنت طالق إن صعدت، وطالق إن نزلت، وطالق إن وقفت. فرمت نفسها إلى الأرض، فقال لها: فداك أبي وأمي إن مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة في أحكامهم !!




ومن رأيي أن ذلك يعود لإدراك هؤلاء لأهمية العلم ومكانته عند الله وسلطانه في الدنيا والآخرة ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (المجادلة:١١) ، فأحبوا أن يستزيدوا به مكانةً ورفعةً في الدنيا. ولو كان ذلك النوع من أهل العلم على مستوى



قولــه تعــالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ (فاطر:٢٨) ، لما بذلوا ذلـك العـلم رخيصاً مهيناً في مجالس أصحاب الجاه والثراء، وجعلوا المـال يسعى للعلم لا العكس، فهم أغلى قيمة عند الله وعند الناس، قال علي رضي الله عنه: «أقل الناس قيمة أقلهم علماً».

وهـؤلاء جمـيعاً شـواذ، لأن هذا لا ينفي وجود عشاق علم من أهـل المـال يخدمونـه بصـدق وإخـلاص وينفقون على طباعة الكتب ونشـر الـثقافة، وإقامـة الـندوات والمجـالس العلمـية بوعـي من يريد مرضـاة الله أولا، ثـم خدمـة مجـتمعهم ووطـنهم، وهؤلاء هم الذين يوفقهم الله في الجمع بين الحسنيين.







كن هكذا ولا تندم !

عندما تكون طيِّباً، حنوناً، سمحاً، متواضعاً، وعندما تتجاوز بعواطفك كل الحدود، فتحب كل الناس، وتمدَّ يد العون لكل محتاج إليها سواء طلب منك أو لم يطلب، وتعمل على نصرة كل مظلوم حتى لو أدى ذلك إلى الإضرار بك، وتنسى واجبك نحو نفسك وأهلك وتتكلف في سبيل الآخرين ما تطيق وما لا تطيق، وتتجاوز في ما تفعل مقولة المصطفى ﷺ إمعاناً في فعل الخير فتحب للآخرين أكثر مما تحب لنفسك أحياناً فتبلغ بذلك قمة «الإيثار» ثم تجد نفسك من جراء ذلك كله تقف في قفص الاتهام لأنك وعدت - تطوعاً منك - في بذل قصارى جهدك لتحقيق أمر ما، فلم تستطع فيتهمك صاحبه بأنك لا تريد خدمته بدلاً من أن يشكرك على بذل الجهد، وقد يستغل آخر مواهبك في الإخلاص وحبك لفعل الخير فيوجهك - دون أن تدري - لتخدمه فيما لا يستحق فينقم عليك آخرون، وقد يعجب من تتطوع بخدمته وتحقق له ما يريد فيسيء بك الظن ويعتقد أنك ترمي إلى هدف أكبر من وراء ما قدمت له.

وعندما يكون أكبر عيوبك أن تحسن الظن بكل الناس وتحسن الظن بنفسك فتعد بما تستطيع، وبما لا تستطيع إيمانا منك بأن الله سيوفقك في فعل الخير لمستحقه، واعتقاداً منك بأن بذل الجهد في حد

ذاتـه عمـل عظـيم ثـم تـتلقى بعـد ذلـك أكـوام اللـوم، والعـتاب والاتهامـات، وسـوء الظـن ممن خاب ظنهم فيك لعدم قدرتك على بلوغ ما أرادوا منك.

وقـد يأتيك صديق ناصح فيقول لك: إن هذه طيبة مفرطة وأن الطيـبة المفـرطة في هـذا الزمن تعتبر «غفلة» ويعتبرها البعض «غباء» وأن «الخبْث» و«اللؤم» و«الأنانية» هي العملات الرائجة هذه الأيام في سـوق الـتعامل بين الناس، وقد يقول لك ناصح آخر بصدق: إن طينـتك الطيـبة بحاجـة إلى أن تعجـن بأوقـية مـن «الخبـث» لتستطيع الـتعامل مـع العصـر وإلا فأنـت «مغفـل» لأنـك تحسـن الظن بداية وتحســن النية في كل عمل، وتصدق كل ما يقال وتتوقع من الناس ما تفعلـه لهـم وعـندما يحـدث عكـس ذلك تصدم لكنك لا تتعلم، ولا تعرف كيف تعاملهم بالمثل، فتحسن إلى من يسيء إليك، وتعفو عمن تقـدر علـيه ومـن لا تقـدر علـيه، وترضـى بسرعة إذا غضبت، ولا تتسرب قطرة من حقد أو كراهية إلى قلبك لأنك تغسله بذكر الله كل لـيلة قبل أن تنام من أوضار الدنيا، ذلك إيماناً منك بأن من يطمع في عفو الله ومغفرته فليتسامح مع عباده.





ومـع ذلـك كلـه، عليك ألا تتغير، وثق تماماً أن من يفعل ذلك يـتولى الله أمره في كل شيء، ويتكفل بأجره وفقاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ

عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الشورى:٤٠)، ولا يكون الأجر على الله إلا في الأمور التي يتجرد الإنسان فيها من الطمع في طلب المثوبة وعدم انتظار الشكر أو الثناء من الناس، وهي أشياء زائلة ومؤقتة ولا تستمر طويلاً، لأن رأي الناس فيك قد يتغير في لحظة شك أو سوء ظن أو وشاية أو هوى.

وثق تماما أنك إذا طلبت مرضاته وحده في كل ما تفعل وتقول فسيدافع عنك الله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ «الحج: ٣٨» وسيرضى عنك - بهداه وتوفيقه - كل من تريده أن يرضى عنك من البشر، أما إذا طلبت رضا الناس وحدهم فإنك ستلهث كثيراً وتتعب كثيراً، ولن تظفر بالرضا الذي تريد، وقد قالت العرب قديما «رضا الناس غاية لا تدرك».




لهذا فإن رب العباد اختصر لك الطريق حين وجهك بالتقرب إليه لتجد نفسك قريباً من عباده، افعل الخير لمن يستحق، فإن كان فيمن لا يستحق، فإن الله لن يعدم أجرك، ولا تندم على معروف قدمته لمن لم يشكرك ولم يحفظ لك حسن صنيعك.

واستمر وسامح من كل قلبك، ولكي تثبت لنفسك طهارة قلبك من رجس الانتقام، أحسن لمن أساء إليك في أقرب فرصة ممكنة، ولا تقل: إني تسامحت وكفى، فهذا دليل أن في قلبك غلاً عليه، وثق أنك حين تفعل ذلك فستعلّمه كيف يتسامح ويحسن،



وسيكون لك الأجر العظيم في فضل المحبة والتسامح بين الناس، والدفع بهذه الأمة نحو مجتمع أنقى وقلوب أطهر.

اجعل دعاءك كل ليلة قبل أن تنام «اللهم إني عفوت عمَّن ظلمني وأحسنت لمن أساء إليَّ وتصدّقت بعرضي على الناس فاسترني فوق الأرض واسترني تحت الأرض واسترني يوم العرض وأدخلني في واسع رحمتك يا أرحم الراحمين».

وأنت تعرف أن الإنسان المسلم ليس له مطلب أعظم من الستر في المواضع الثلاثة التي ذكرها الدعاء، في الحياة، وفي الممات ويوم الحشر، وما أرخص الثمن أمام هذا العرض العظيم، التسامح مع الناس والإحسان إليهم، واعمل بذلك الدعاء بصدق في معاملاتك اليومية، وثق تماما أن الطيب لا يستطيع إلا أن يكون طيباً، فهل تستطيع الوردة أن تغير رائحتها الزكية إذا ما شمها من لا يستحقها؟ كذلك النحلة لا تستطع أن تستبدل عسلها بـ (السم)، وقد ضرب رسول الله ﷺ المثل بهذا المعنى حين قال «**مثل المؤمن مثل النحلة لا تأكل إلا طيباً ولا تضع إلا طيباً**».

فالعسل لا يمكن أن يكون مراً على لسان آكله مهما خبثت دخيلة آكله، وليس أمام الطيب من خيار إلا أن يكون طيباً، ولن تغير معدنه أوقية من الخبث!.

وعّاظ المناسبات ومكايد النساء!

يتحامل بعض الوعاظ - عفا الله عنهم - على المرأة فيما يحدثون به الناس، ويحذرون منها، وكأنها في ذاتها شر، فلا يذكرون إلا عيوبها وكلنا عيوب وكأنها لا خير فيها و«**الخير في أمتي إلى يوم القيامة**» كما يقول رسول الله ﷺ.

ويأتي أحد هؤلاء الوعاظ والدعاة إلى الخير - هداهم الله وعفا عنهم - إلى مناسبات الزواج ويطلب الكلمة فيفرح بذلك أهل العريس والعروس حبا في الأمر بالمعروف ورغبة في الموعظة الحسنة، فيتحدث الرجل قليلاً عن الزواج كلاماً طيباً ثم لا يلبث أن يقف للحديث عن مكائد النساء ويحذر الرجال منهن ومن شرهن، ويتحدث عن الرجال الذين يتبعون زوجاتهم فيتحولون إلى «إمعات»، وعن خطر الانقياد للزوجة ومن كراهية الزوجة لأهل زوجها.



وقد يستعذب هذا النوع من الوعاظ الحديث فيطيله على الناس إلى أن يتحدث عن حق الزوج في زوجة ثانية وحكمة التعدد في الإسلام.

فيمل الناس من الإطالة ويستهجنون عدم ملاءمة الموضوع للمناسبة فينصرفون عما يقول إما بالتسامر فيما بينهم، والمتأدب

منهم ينصرف بقلبه ويصم أذنه، فيخسر الواعظ أجر الدعوة إلى الله وربما يأثم لأنه تسبب في انصراف الناس عن الخير.

حدث هذا في إحدى مناسبات الزواج التي حضرتها ورأيت العريس ووالده يتصبب منهما العرق ورأيت إشفاق الناس عليهما.

كيف يكون موقف والد العروس وأهلها وهم يسمعون الواعظ الكريم يحذر العريس على مسمع من كل الناس من كيد الزوجات؟ وكيف سيكون لقاء العريس بعروسه - لأول مرة - بعد أن سمع لمدة نصف ساعة هذا الدرس في مكر النساء؟

وماذا يمكن أن يحدث لو كان العريس غريراً لا يفقه شيئاً في حق الزوجة على الزوج في المعاشرة بالمعروف ويأخذ كلام الواعظ محمل التصديق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه؟!

إن شاباً غريراً يحب الخير ويثق في الدعاة إليه يسمع مثل هذا الكلام لا يستبعد أن يحمل العصا على زوجته ليلة عرسه ويغلظ عليها بالقول والفعل حتى لا يتحول إلى حمل وديع بين يديها وفقاً للخطبة التي سمعها ليلة زواجه!

ثم هل يجوز - ذوقاً وأدباً إن لم يكن شرعاً الحديث ليلة الزواج بأول زوجة أن يتحدث الآمر بالمعروف عن الزوجة الثانية.

أما كان الأجدر بهذا النوع من الوعاظ الذين أعطوا أوقاتهم لله أن يتخيَّروا الكلام المناسب في المكان المناسب؟!

ألم يسمعوا بمقولة «لكل مقام مقال» التي عمل بها الأنبياء والدعاة الناجحون؟!

وهل المرأة كلها شر حتى نحذر منها الزوج ليلة عرسه بها؟!

أما كان الأجدر بالحديث أن يقتصر على حسن المعاشرة بين الزوجين، وعلى تذكير الزوج بحق زوجته وواجبه نحوها، وأنها أمانة في عنقه منذ لحظة تسلمه لها من يد أبيها؟!

أين هذا النوع من الوعاظ من قوله تعالى: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ (النساء:١٩) وقوله تعالى: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ (البقرة:٢٢٨) أين هذا النوع من الوعاظ من قول سيد الخلق محمد ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخيارهم خيارهم لنسائهم**» وقوله ﷺ : «**ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عوانٌ عندكم**» ؟!

أما كان الأولى أن نتحدث في ليلة زواج الرجل بما يؤلف بين قلبه وقلب زوجته وبما يديم العشرة ويعين على الصبر ويشجع على التسامح، وهو ما حث عليه أعظم الأزواج وأعدلهم وأكرمهم لزوجه محمد ﷺ حين قال «**أيما رجل صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله**




















من الأجر مثل ما أعطى أيوب، على بلائه وأيما امرأة صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله من الأجر مثل ما أعطى آسية بنت مزاحم امرأة فرعون»؟!

فلنتق الله في النساء لأن المرأة أم وجبت لها الطاعة، وأخت وجبت لها الصلة، وبنت وجبت لها الرحمة، وزوجة وجبت لها حسن المعاشرة، بأمر من فوق سبع سماوات.

فما أوسع الإسلام وما أضيق عقول هذا النوع من المسلمين.







قبل أن تكون واعظاً في الناس ..

الوعظ في الناس وحثهم على فعل الخير وإطماعهم في عظيم ثوابه وغفرانه، وتنفيرهم من غضبه وعقابه من أولويات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوعظ في الناس من الأهمية والخطورة بمكان بحيث لم يجعل الله تعالى بابه مفتوحا لكل الناس، وإنما دعا فئة من المسلمين للقيام به، وذلك وفقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران:١٠٤) ولهذا يجب أن تتوافر في الداعية أو الواعظ شروط تتصل بشخصه أهمها أن يكون مستقيماً، حسن الخلق، حليماً، ومحبوباً من الناس. وشروط تتصل بعلمه أهمها أن يكون ذا علم واسع بالموضوع الشرعي الذي يتكلم فيه حتى لا يحرجه جاهل فيحتار، أو يوقعه مغرض فيعجز.




ومع ذلك فالعلم وحده لا يكفي أن يجعل الإنسان مؤهلا للوعظ ما لم يمتلك صاحب هذا العلم مؤهلات توصيل ما عنده للناس بأحسن الوسائل، لهذا يقول جل وعلا: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل:١٢٥) ويتلخص في هذه الآية أعظم الدروس في تربية الداعية، ودعوته إلى التسلح





بـأقوى أسـلحة الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر وهو التعامل مع الـناس بالحـلم والصـبر علـيهم والتسـامح معهم وأخذهم بالحسنى، وهذا هو مفتاح «الحكمة» التي يدعو إليها الله سبحانه وتعالى.

وقـد انتشـر في السـنوات الأخـيرة في كـثير مـن بـلاد العـالم الإسـلامي أنـاس مـن محـبي الخـير - يعظـون الـناس في المناسـبات والـتجمعات والمسـاجد، ولكـن في الكـثير مـنهم - عفا الله عنهم - عـيوب تحـول بيـنهم وبين دخول قلوب الناس، فبعضهم قليل العلم الشـرعي يكـرر المعلومـات الـتي يعـرفها كل الناس فينصرفون عنه، وبعضهم لا يحسن مدخل الحديث فيتكلم بفظاظة مهدداً متوعداً بنار جهـنم فـيجعل السـامعين يشـعرون وكأنـه يـتهمهم بأنهم سيكونون وقودها!!




ولا يحسـن بعـض الوعـاظ اختيار الموضـوع المناسـب للمكان المناسـب وللـناس المؤهلـين لسـماع هذا الموضوع، وفشل الداعية في اختـيار موضـوعه مدعاة لفشله في تبليغ رسالته، وقد كان الناجحون مـن الدعـاة والزعماء والخطباء هم أولئك الذين يعرفون جيداً معنى مقولة «لكل مقام مقال» والكلام أمام الناس من الشهوات المضرة إذا أطلـق الإنسـان فيها لنفسه العنان أخطأ. لهذا قيل: «أفضل الكلام ما قـلَّ ودلَّ». والواعـظ الذكي هو ذلك الذي يعرف من ملامح الناس الذين أمامه متى يستمر في حديثه؟! ومتى ينهيه؟!



وهناك من الوعاظ من يستأذن في عشر دقائق ويتكلم نصف ساعة فيفقد مصداقيته عند الناس !!

والناس لا يرحمون، وما أسهل أن يعمموا آراءهم!! فإذا استثقلوا داعية مرة انصرفوا عنه كل مرة. ولهذا فإن أسلوب الدعوة إلى الله ومعرفة آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو «الحكمة» التي اشترطها الله سبحانه وتعالى في الداعية. وفي هذه «الحكمة» يتمثل توجيه المولى سبحانه وتعالى إلى نجاح «الوسيلة» وهو نجاح يتوقف عليه تحقق «الغاية»، ومن هنا فإن المقدرة على حمل رسالة الدعوة إلى الله لا يصلح لها كل من توفر لديه العلم الشرعي فقط أو كل من أحسن الظن بنفسه واعتقد أنه يستطيع ذلك.

رسالة الدعوة يحملها إلى جانب العلم الشرعي صاحب حسن الخلق الصبور الحليم الواعي بحقيقة نفوس الناس، ذلك الذي يدرك بنظرة إلى وجوه سامعيه متى يبدأ الحديث وكم مدة يستغرق فيه، ومتى ينهيه، فلا يكون عليهم ثقيلاً ولا فظاً غليظاً ولا مملاً، لهذا خصص الله سبحانه رسالة الدعوة إلى فئة من الأمة وليس الأمة كلها حين قال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ .

هل نستطيع أن نكون مثله ؟

لـو قـنع كل إنسان بأنه لا يخرج من دنياه إلا وقد أتاه كل رزقه الذي كتبه الله له.. لما طمع أحد في مال غيره، ولما حسده مخلوق آخر لفضـل آتاه الله إياه في المال أو الولد أو الجاه، والحسد من أكبر آفات هـذا العصـر الذي ضعف فيه إيمان الناس، وقلّت فيه ثقتهم بالله إلا مـن رحـم الله، يقـول ﷺ : «**والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» (أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة)، قال أنس بن مالك: «**كنا يوما جلوساً عـند رسـول الله ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن من هذا الفـج رجل من أهل الجنة. قال فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته مـن وضـوئه قد علق نعليه في يده الشمال فسلم، فلما كان الغد قال رسـول الله ﷺ مـثل ذلـك فطلـع ذلـك الـرجل، وقاله ﷺ في اليوم الثالث، فطلع ذلك الرجل، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو ابـن العاص فقال له: إني لاحيت أبي فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً فـإن رأيـت أن تؤويـني إلـيك حتى تمضي الثلاث فعلت، فقال: نعم فـبات عـنده ثـلاث ليال لم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا انقلب عـلى فراشـه ذكـر الله تعالى، قال: غير أني ما سمعته يقول إلا خيراً، فـلما مضت الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بـيني وبين والدي غضب، ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ**

يقـول كـذا وكـذا فـأردت أن أعـرف عملـك، فلم أرك تعمل عملاً كثيراً، فما الذي بلغ بك ذلك؟ فقال : ما هو إلا ما رأيت فلما وليت دعـاني وقـال: مـا هـو إلا مـا رأيـت غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: «فقلـت لـه هـي الـتي بلغـت بك، وهي التي لا نطيق» «رواه أحمد بإسناد صحيح».

وقـال الرسـول ﷺ : «**كـاد الحسد أن يغلب القدر**» وقال ﷺ: «**أنه سيصيب أمتي داء الأمم قالوا: ما داء الأمم؟ قال: الأشر والبطر والـتكاثر والتـنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد.. حتى يكون البغي ثم الهرج**» «أخرجه ابن أبي الدنيا».

وسـأل موسى عليه السلام ربه عن رجل رآه تحت ظل العرش فغبطه .. فقال الله تعالى عنه:

«**كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعق والديـه، وكـان لا يمشـي بالنميمة**». وقد حذر رسول الله ﷺ وخاف عـلى أمـته مـن هذا الداء فقال «**أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون**» «أخرجه ابن أبي الدنيا».

فلـيس أعظـم قـربى إلى الله مـن مخلـوق ينام وصدره خال من الحسد والضغينة والكبر على عباد الله، فدخول الجنة ليس بالعبادات وحدهـا، ولكن بالقلوب الطاهرة النقية التي نزع منها أصحابها الغل
























على الناس مهما كانت إساءاتهم، وصاحب هذه القصة يصدق عليه الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ : «**إن أبدال أمتي لن يدخلوا الجنة بالأعمال، ولكن يدخلوها برحمة الله وسخاوة النفس وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين**».

وهكذا نجد أن القلب النقي طريق سريع يحمل صاحبه إلى الجنة، ولكنه طريق قليل سالكوه لصعوبة الوصول إليه .. طريق يحتاج إلى معاناة وإرادة وصبر وإيمان.






متى تصبح أعمالنا متقنة ومثمرة ؟

العمل أمانة كما أنه رسالة، وكل إنسان له رسالة في الحياة، ومن لا يشعر أنه يؤدي رسالة من خلال عمله لا أمانة له ولا أمان، ورسالة الحياة تكليف تميز به الإنسان عن سائر مخلوقات الله حين حمّله رب العالمين البشر الأمانة التي أبت السموات والأرض أن يحملنها فحملها الإنسان، وبالتالي فإن من يؤدي عمله بإتقان وإخلاص ليس متفضلا على أحد لأنه يؤدي واجباً عليه أداؤه على أكمل وجه، فالله سبحانه وتعالى اعتبر عدم أداء هذا الواجب خيانة للأمانة التي حملها الإنسان، ومن هنا كان التحذير الذي نزل من فوق سبع سموات ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأنفال:٢٧).





والمفروض أن يكون إتقان العمل والإخلاص فيه والقيام به تمام القيام هو القاعدة، والاستثناء خلاف ذلك، وهذا ما نجده في الأمم الحية التي حققت حياتها بحيويتها في عملها وإخلاصها له وتفوقها فيه، رغم أنها لا تؤمن إلا بدنياها فقط، إلا أنهم قوم أخلصوا للدنيا فنالوها عن استحقاق - ونحن لا نخلص للدنيا، وأحيانا ولا للآخرة - والله لن يغير نواميس الكون وسنن الحياة لأجلنا .. لمجرد أننا أعلنا إيماننا به وتوقفنا عن العمل بما آمنا به.



إن المسلمين موعودون من رب العالمين بخير الدنيا وحسن ثواب الآخرة إن هم أخلصوا العمل وصدقوا النوايا. فلم لا نعمل لأجل هذا الوعد العظيم؟

تخلفنا عن ركب الحضارات بعد أن كنا في طليعته وكنا رواده.. ولن نعود إلى مكانتنا السابقة السباقة بين الأمم وإلى الصدارة التي أرادها الله لنا حين جعلنا «**شهداء على الناس**» ما لم نعمل بإخلاص وبلا كلل أو ملل لخدمة أوطاننا كلٌ في موقعه مهما صغر هذا الموقع أو كبر، فالموظف الذي يعمل مخافة من رقابة رئيسه لا من دافع ذاتي يكمن في ضميره لن يجيد عمله لأن رئيسه لن يستطع أن يراه في كل حين، ومن غاب عنه الشعور برقابة الله عليه، غاب عنه الشعور بأنه صاحب رسالة في الحياة، وغاب عنه الشعور بحمل الأمانة.



لهذا جاء في الحديث الشريف: «**اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تره فإنه يراك**» وهو معنى عظيم من معاني العبادة في الإسلام التي لا تقتصر على أداء الشعائر فقط وإنما تشمل استحضار المشاعر (أي وجوب الشعور العميق بوجود الله معك في كل مكان وفي كل وقت)، وإذا استحضر الإنسان وجود ربه معه في كل وقت وكل مكان وتذكر رقابته عليه أتقن عمله، وإذا أتقن عمله انطلاقا من هذه النية أصبح عمله مرضاة لوجه الله ومن كان عمله خالصاً لوجه الله





أصبح عبادة.

وإذا أصبح عمل أفراد المجتمع المسلم عبادة تميز بالإخلاص والصدق، وإذا ظهر الإخلاص والصدق على العمل بارك الله فيه، والنية الصادقة تثمر وتؤتي أكلها وترتفع بها الأمم إلى العلا في درجات التطور والرقي، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.



متى ولماذا نستشير غيرنا ؟

يرى بعض الناس أن رأيهم هو الصواب على الدوام، ولا يعجبهم من الآخرين العجب نفسه إلا إذا كان من صنع أنفسهم، أو من أعمال رأيهم السديد. ويحسب هذا النوع من البشر جهلا أن تفوق غيرهم عليهم بالرأي أو بالعمل انتقاص من حقهم، لهذا نراهم لا يعترفون بصحة رأي غيرهم، وإن كانوا يعرفون في قرارة أنفسهم أنه صحيح.

وفي هذه البيئة النفسية عند هذا النوع من الناس تنمو شجرة الغرور فيعتقدون أن رأيهم بالفعل هو السديد وأن أقاربهم وكل من حولهم من الناس يجب أن يستشيروهم حتى تسير أمور حياتهم على أكمل وجه، أما هم فليسوا بحاجة إلى رأي غيرهم حتى ولو عرض عليهم الطرف الآخر رأيه على شكل نصيحة فلا يلقون بالاً إليها، وعندما تحل بهم الكوارث من حصاد تفردهم بالرأي وعدم استشارتهم لغيرهم ممن حولهم يلتمسون لأنفسهم الأعذار ويضعون السبب على كل شيء إلا أنفسهم.

وهذا النوع المسكين من البشر يستحق الرثاء لأنهم هم الجناة وهم الضحايا، ولو عادوا لتأمل ما جاء في صحيح أحاديث نبيهم محمد ﷺ لوجدوا أن الله أمر نبيه من فوق سبع سموات بمشاورة

قومه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، والمشاورة من علامات حكمة الإنسان وعقله ويحدد الرسول ﷺ مكانتها العالية فيقول: «**رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس، وما استغنى مستبد برأيه، وما هلك أحد عن مشورة، فإذا أراد الله بعبد هلكة، كان أول ما يهلكه رأيه**» وعن أبي هريرة رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ «**استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا**» وفي هذا تحديد لصفة المستشار. ويضع الرسول ﷺ المشاورة في منزلة «العلم» لأن الجاهل هو الذي لا يستشير فيقول ﷺ : «**نقحوا عقولكم بالمذاكرة، واستعينوا على أموركم بالمشاورة**» أما في شروط المشاورة فيقول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه أبو بلال العجلي عن حذيفة بن اليمان: «**قال لقمان لابنه: يا بني فإذا استشهدت فاشهد، وإذا استعنت فأعن، وإذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر**».





لهذا قال الحكماء: المشاورة راحة لك وتعب على غيرك لأن «**المستشار مؤتمن**» كما جاء في حديث الرسول ﷺ ويقولون: «من حق العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العقلاء ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأي الفذ ربما زل، والعقل الفرد ربما ضل» وجاء في كتب التراث قيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم، قال: نحن ألف رجل، وفينا حازم، ونحن نطيعه، فكأنا ألف حازم، وسئل أحد العلماء النصح في المشورة فقال: إياك ومشاورة رجلين: شاب



معجب بنفسه، قليل التجارب في غيره، وشيخ كبير أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه.

فليس عيباً ولا انتقاصاً أن يستشير الإنسان من هو أصغر منه سناً أو أقل منه علماً أو مكانة أو منصباً كما أنه ليس شرطاً أن تكون الحكمة لدى الأكبر سناً لأن الله يؤتي الحكمة من يشاء ﴿ **يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ (البقرة:٢٦٩) «**والحكمة ضالة المؤمن**» كما جاء في الحديث الشريف. ولو كان للأسرة مجلس مصغر مماثل يضم الزوجة والأبناء لما فسد قرار، ولما خاب اختيار، وهذا يطابق قول بعض السلف: ما خاب من استخار ولا ندم من استشار، وأنشد أبو العينا عن الأصمعي:

النصح أرخص ما باع الرجال فلا ... ترد على ناصح نصحاً ولا تَلُمِ
إن النصائح لا تخفى مناهجها ... على الرجال ذوي الألباب والفهم

فما أعظم الذين يستشيرون أبناءهم وزوجاتهم والعاملين معهم إن رأوا منهم حكمة وسداداً في الرأي، وفي هذا نجاح على مستوى الأفراد والحكومات، ولهذا نرى الحكام وكبار المسؤولين يحيطون أنفسهم بالمستشارين وتقيم الدول مجالس للشورى فتنجح في القرار السليم.

هل يخاف المؤمن ويقلق ؟!

لم يمنح دين من الأديان أمنا وسلاما كالأمن والسلام الذي منحه الإسلام للمسلمين، لهذا يحرم الإسلام ما يتهافت عليه الناس في الغرب من تأمين الحياة، لأن الأمن أمن الله والضمان منه سبحانه.

لقد أعطى الله الإنسان الأمان والأمن والطمأنينة والسكينة والسلام للمسلم من فوق سبع سماوات، وهي ضمانات لا يشعر بها إلا من يؤمن بها، ولن يؤمن بها إلا من سلم أمره لله، وتوكل عليه ورسول الله ﷺ يبشر هذا النوع من المؤمنين بقوله: «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير**» وصبر المؤمن يرفعه إلى أعلى درجات الإيمان وهي الإحسان، وقد أكد الله سبحانه وتعالى هذا المعنى الجليل في العديد من الآيات، فقال سبحانه﴿ **وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (هود ١١٥) وفي آية جعل الله سبحانه «الصبر» أقوى ثمار التقوى فقال: ﴿ **إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (يوسف:٩٠) وتلاحظ أن معظم آيات الصبر في القرآن الكريم ترتبط بأمر الله لنبيه مع تكرار ربط الصبر بالتقوى والإحسان للتأكيد على هذا المعنى، ففي قوله تعالى: ﴿ **وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾** ﴾ (النحل:١٢٧-١٢٨).






فكيف يخشى المؤمن الفقر ويخاف من المستقبل، وهو يتلو قول ربه الحق: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (يونس:١٠٧) إن الله وحده القاهر فوق عباده، وهو سبحانه وحده القادر على عباده، فهل من مجال يخاف فيه المؤمن من مخلوق عاجز مثله أن يقطع رزقه أو يقطع عنقه أو أن يمنحه العافية أو يضر به؟! إذا آمن المؤمن الحق أن الأمر كله لله وبمشيئة الله شعر بالأمن والأمان والطمأنينة وعاش في سلام مع نفسه ومع الناس من حوله، لهذا فإن الإنسان قد لا يحسن الاختيار لنفسه، فإذا ترك الأمر لله وجعل الخيرة فيما اختاره الله وفقه الله، لهذا قرر الله الحق من فوق سبع سماوات ﴿ **وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[البقرة: ٢١٦] .

إن المسلم الحق يسلم أمره كله لله، والمؤمن الحق يؤمن بكل ما أنزل الله على نبيه ويعمل به، المؤمن الحق لا يخاف إلا من الله ولا يلجأ إلا إليه وحده، ولا يبلغ المسلم ذروة الإيمان إلا بالإحسان، والإحسان، أشهر ثمار التقوى ﴿ **إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (يوسف:٩٠).

عندما يخاف المظلوم من الظالم!

ما مررت بآية من آيات الظلم في كتاب الله ولا وقفت على حديث من أحاديث رسول الله ﷺ التي يبشر فيها بسوء عاقبة الظالمين.. ألا وتساءلت كيف يهون على مسلم أن يظلم أخاه المسلم؟ ألا يتذكر الظالم غضب الله عليه ولعنته له من فوق سبع سماوات حين أنزل على نبيه يقول: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود:١٨)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (إبراهيم:٤٢).

فليتذكر الذين يظلمون الناس - وقد وضع الله في أيديهم أمانة أعمال العباد وأرزاقهم - أن الله قادر أن يسلب منهم ما أعطى، فويل للذين يستغلون مناصبهم وفق أهوائهم، ويستضعفون الناس ويستهينون بهم فيهضمون حقوقهم ويسيؤون إليهم بل ويفترون عليهم مستندين إلى ما بيدهم من سلطات وإلى ثقة مرؤوسيهم فيهم، فإذا انطلى ظلمهم على رؤسائهم فلن ينطلي على رب العالمين علام الغيوب - ويل لهم من دعوة المظلوم الذي ينصره الله من فوق سبع سماوات. قال الرسول ﷺ : «**ما من عبد ظُلِم فشخص ببصره إلى السماء إلا قال الله عز وجل: لبيّك عبدي لأنصرنّك ولو بعد حين**».

وقال ﷺ : «**إياك ودعوة المظلوم فإنما يسأل الله حقه**».



ومع ذلك فإن بعض المظلومين يخافون من ظالميهم فلا يرفعون

شكواهم إلى كبار ولاة الأمر الذين ائتمنهم رب العالمين من فوق سبع سموات على إقامة شرع الله، ويكتفون بالدعاء على الظالم، وهم بهذا يخطئون ولا يتيحون لولي الأمر فرصة إحقاق الحق وإقامة العدل فيظلمون أنفسهم ويظلمون ولي الأمر لأنه بشر لا يعلم الغيب، والمظلوم المؤمن بحق لا يخشى بطش الظالمين مهما استعصموا بما في أيديهم، فالله القادر فوق عباده والله القاهر فوق عباده.

وشكوى الظلمة واجبة لأنها تدخل في باب «الظلم الذي لا يترك» وهو ما وصفه رسول الله ﷺ بأنه ظلم العباد للعباد، قال رسول الله ﷺ : «**ألا إن الظلم ثلاثة، فظلم لا يُغْفَر وظلم لا يُتْرَك وظلم مغفور لا يُطْلَب، فأما الظلم الذي لا يُغْفَر فالشرك بالله، وأما الظلم الذي لا يُتْرَك فظلم العباد بعضهم بعضاً، وأما الظلم المغفور الذي لا يُطْلَب فظلم العبد نفسه**». فالمؤمن الحق ينصف نفسه وينصف ولي الأمر بشكوى الظالمين ﴿ **وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾ (الشعراء:٢٢٧).

الاحتيال على الزكاة !!

الـزكاة حـق الفقراء في أموال الأغنياء، حق فرضه الله من فوق سـبع سمـاوات. والـزكاة ركن ركين من أركان الإسلام، من أنكرها يخـرج مـن ملـة الإسـلام، وقـد قـاتل خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصـديق رضي الله عنه من امتنع عن دفعها بعد وفاة رسول الله ﷺ لأن الامتـناع عـن دفعهـا ردة عـن الإسـلام، وقـال قولـته المجـلجلة المشـهورة: «**والله لـو مـنعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه**».

ولهـذا يجـب أن يـتحرى الذيـن تجب عليهم الزكاة أن تؤدى في مصـارفها الحقيقـية، وأن تعطـى لمسـتحقيها مـن الفقـراء والمسـاكين والمحـتاجين والمعسـرين، والمؤمن الحق هو ذلك الذي يؤدي زكاة ماله بأمانـة؛ لأن الـزكاة طهـارة لـلمال وتزكية للنفس وبراءة للذمة وحق يؤديـه الغـني لمسـتحقيه مـن دون أن يمن عليهم أو يشعر أنه صاحب فضـل، فالفضـل لله علـيه، والمـال مال الله أعطاه له أمانة ليمتحنه به ويرى كيف يراعي فيه حقوق أصحاب الحقوق.



ولـو أدى أغنـياء المسـلمين زكـاة أموالهـم كاملـة وأنفقوهـا في مصـارفها الحقيقية وأعطوها لمستحقيها ما تضور مسلم جوعاً ولا مد مسلم على وجه الأرض يده لغيره. ولكن المؤسف أن بعض زكوات

المسلمين لا تصرف كاملة، والبعض يتحايل على مصارفها فينفق الجزء الأكثر أو الأقل في غير أوجهه الصحيحة.

فهناك من يدفع الهدايا والرشاوى والأعطيات والهبات التي تقدم في أثناء العام ولمصلحة أعماله التجارية على حساب مصرف الزكاة. فإذا جاء آخر العام وحان موعد صرف الزكاة قدم كشوفاً وبيانات لا تعد ولا تحصى تشتت شمل الزكاة وتقصم ظهرها فلا يبقى منها إلا القليل.

ويبرر هذا النوع من المحتالين على الزكاة بأن العطايا أو الهبات التي يقدمونها طوال العام تعد من الزكاة لأن الذين تعطى لهم يستحقونها، وأن رواتبهم لا تكفيهم، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ (البقرة:٩) ذلك لأن النية أساس كل عمل في هذا الدين، وما يدفعه هؤلاء طوال العام يتم لأغراض بعيدة كل البعد عن الأهداف السامية للزكاة. فالنية يجب أن تسبق العمل، وما يدفع من أموال طوال العام يدفع مقابل خدمات يحصل عليها صاحب المال أو لمصالح معنوية تتحقق له مقابل ذلك، وهذا يعني أنها لم تدفع لاستحقاق صاحبها لها، لأن الذي دفعت له لو وقف على باب المزكي ما دفعها له من دون سابق معرفة أو سابق مصلحة على الأصح.

كما يغتال البعض الزكاة بدفعها إلى الذين لا يستحقونها من أهله وأقاربه وكأنه قد استكثرها على الفقراء وخالف أمر الله، فليعلم هؤلاء أن هناك فرقاً بين صلة الرحم وبين الزكاة، وما لم تدفع زكاة المال خالصة مخلصة لوجه الله لمستحقيها من دون أن يقضي بها صاحبها مآرب دنيوية، فإن ذلك إشراك في النية، والله لا يقبل أن يشرك به في حقه شيء.







لو يعلم عشاق المظاهر

حب الظهور وعشق المظاهر مرض اجتماعي لا يبتلى به أصحاب المال وأرباب الثراء فحسب، بل نجده وربما أكثر استفحالا لدى الكثير من متوسطي الحال ومحدودي الدخل. فما أكثر الذين يدَّعون مالا يملكون، ويتكلفون ما لا يستطيعون ويغرقون أنفسهم في ديون باهظة، ويضعون أنفسهم في النهاية أمام مشكلات لا حصر لها، وفي الوقت نفسه ما أكثر الذين يعشقون التظاهر بما يملكون ويكلفون أنفسهم في سبيل نيل إعجاب الناس وإرضائهم أموالا كثيرة لو بذلوها في الخير وفي سبيل الله لأصبحوا في مقدمة المحسنين.

يوجد في مجتمعنا من يبذل آلافاً في إقامة الولائم وشراء أفخر «الطنافس» والمجالس سواء اقتدر عليها مادياً أم لم يقتدر، فنجد المجلس والولائم في بيت غير المقتدر ربما تتجاوز قيمتها كل أثاث البيت، وربما تجور على حقوق أهل البيت من طعام ولباس وشراب، أما في بيت المقتدر فإن حب المظاهر يكون غالبا على حساب حب الخير، وكلما زادت المبالغة في الإنفاق على المظاهر تراجع في النفس حب الخير الذي لا يعلمه إلا الله واختفت الصدقة الحقة الخفية، وأصبح حتى الخير نفسه ينفق عند بعض الناس حباً في استحسان الناس لا في مثوبة الله. روى لي أحد عشاق خدمة الناس بالسعي في الخير بجمع الصدقات والزكوات أنه إذا دخل على بعض الأثرياء من عشاق المظاهر على انفراد لم يظفر منهم بشيء، وإذا غلبهم الحياء

منه أعطوه البخس القليل ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ كما وصفهم الله سبحانه وتعالي من فوق سبع سماوات، فكان الدرس لانتزاع حق الفقراء والمستحقين من هذا النوع من البشر أن تأتيه في جمع من الناس وفي مجلس حاشد من مشاهده الفاخرة لتظفر منه بما يريد أن يظهر به أمام الآخرين!!

هؤلاء هم عشاق المظاهر الذين لا يخلو منهم أي مجتمع.

الأشحة على الخير، الذين يمارسون الكرم في غير موضعه، ويبذلون المال في غير أهله.

هؤلاء هم الذين يفضلون زهو الأولى على أجر الآخرة.

ويفضلون نيل إعجاب العباد على رضا رب العباد.

وإذا نظرنا إلى حالة هذا النوع من ميسوري الحال الذين يعشقون الظهور ويبذلون في سبيله كل شيء بأنهم شريحة من المرضى نفسياً يعانون من عقد ما .. فإن حالة عشاق المظاهر من محدودي الدخل ومتوسطي الحال أكثر سوءا من هؤلاء، إذ إن عشقهم للظهور يقودهم في كثير من الأحيان إلى مشكلات اجتماعية وأخلاقية، فلا يكون لهم في الخير نصيب من قريب ولا من بعيد لأنهم لا يملكون ما يبذلون، وإن ما يملكون هم وأهليهم أحق به من غيرهم.



إن هدف هذا النوع المريض من عشاق المظاهر من الفقراء غالباً الظهور أمام من هم أكثر منهم مالاً وأعز نفراً، وتكون النتيجة

بدون تقدير وثناء ممن ابتغوا مضاهاتهم وحرموا في الوقت نفسه أجر من يستحقون الإنفاق عليهم، فخسروا الدنيا والآخرة.

لو يعلم هؤلاء أن غناهم في أنفسهم، وأن قيمتهم في ذواتهم وما يتحلون به من علم وخلق ودين لا في ما يملكون من حطام الدنيا، لو علموا ذلك لما تجشموا متاعب المظاهر وكلفتها.

أين هؤلاء من تأمل هذه الآيات العظيمة التي يدعو الله فيها عباده للمسارعة إلى «العطاء» والحصول على «الجزاء» العظيم: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (آل عمران:١٣٣-١٣٥) .

الحياء نظام الإيمان

قرأت خبراً غريباً في إحدى الصحف يتحدث عن دواء ينزع الحياء ويدفع إلى الجرأة وربما إلى القحة فعجبت.. وتساءلت فيما بيني وبين نفسي: هل نحن بحاجة إلى مثل هذا الدواء؟! أما كفى قلة حياء هذا العصر؟ فما تأملت في نقيصة اتسم بها أهل هذا العصر أو نظرت في فعل قبيح من مخلوق إلا ورأيت وراءه «قلة الحياء» أو «انعدام الحياء» أو هما معاً.

فالكثير مما نشاهده في وسائل إعلام هذا العصر، في الإعلام المرئي وقنواته الفضائية التي تغزونا في عقر دورنا أو في الإعلام المطبوع المتمثل في عشرات المجلات التي تصدر ظاهراً باسم المرأة والأسرة وحقيقة باسم التهتك والفساد والانحلال .. إعلام لا علاقة له بالحياء مطلقاً، فإذا أضفنا ما نسمع عنه إلى ما نشاهده وجدنا مجتمعاتنا العربية المسلمة تضج بالقصص التي لا يكاد يصدقها الخيال نفسه.. قصص لا صلة لأصحابها بالحياء البتة، ولو كان في أحد أبطالها مثقال ذرة من حياء لما أقدم على ما فعل.




رُوِيَ عن شعبة عن منصور بن ربعي عن أبي منصور البدري قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**» وهو معنى عظيم ترجمه أحد

الشعراء فقال:

إذا لم تخش عاقبة الليالي

ولم تستح فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير

ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

يعيش المرء ما استحيا بخير

ويبقى العود ما بقي اللحاء

ومن هنا كان الحياء ركناً ركيناً في شخصية المسلم الحق يشترطه الدين في الإيمان الصحيح، فقد روى حسان بن عطية عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ : «**الحياء والعي شعبتان من شعب الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق**» ذلك لأن العي يعين الإنسان على الصمت، والصمت في كثير من المواقف خير من الكلام؛ والبيان يقصد به ﷺ التشدق الذي حذر منه حين قال: «**إن أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيقهون المتشَدِّقون**» وروى أبو سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: رسول الله ﷺ : «**الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء والجفاء في النار**».

وقد قسم أهل العلم الحياء إلى ثلاثة أنواع أولهما حياء الإنسان من ربه، وفي ذلك قال رسول الله ﷺ : «**استحيوا من الله عز وجل حق الحياء.. فقيل: يا رسول الله كيف نستحيي من الله؟ قال: من**

حفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى وترك زينة الحياة الدنيا، وذكر الموت والبلى، فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء».

أما النوع الثاني من الحياء فهو الحياء من الناس، لأنه إذا كان الحياء من الله يمنع الإنسان عن أن يأتي بالفعل المشين في السر فإن الحياء من الناس يمنعه عن أن يأتي به في العلن، فقد روى عنه ﷺ أنه قال: «**من تقوى الله اتقاء الناس**»، وهنا يكون الحياء من الناس من كمال المروءة، والمروءة تتجلى في نوع سلوك الإنسان وسيرته في الناس، وهو ما عرف به الرسول ﷺ قال فيما رواه الحسن عن أبي هريرة «**إن مروءة الرجل ممشاه، ومدخله، ومخرجه، ومجلسه والفه، وجليسه**» وهو معنى صوره أحد الشعراء بقوله:

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها إلا الحياء
إذا رزق الفتى وجهاً وقاحا تقلب في الأمور كما يشاء




وهذه حقيقة ما ارتكس إليه بعض رجال عصرنا ونسائه حين تعرى الرجال من لباس العفة، وخلعت النساء برقع الحياء، وليس المقصود هنا باللباس والبرقع خلع القماش عن الجسد كله أو بعضه، بل المقصود قلة المروءة في هذا النوع من الرجال وضياع حياء الأنوثة في خلق هذا النوع من النساء.

فهناك رجال - للأسف - يأتون المشين في وضح النهار جهاراً، وهناك نساء يتلفظن بما يستحيي منه الفعل القبيح نفسه ويندى له جبينه!



أما القسم الثالث من الحياء، فهو حياء الإنسان من نفسه، ولن يستحيي من نفسه من لم يستح من ربه ومن الناس، ومن استحى من نفسه استحى من ربه ومن الناس، ولم ينفرط عقد المجتمعات المسلمة المعاصرة إلا حين تخلت عن هذه الأنواع الثلاثة من الحياء، لم نستح من أنفسنا أمام أهلنا وفلذات أكبادنا حين سمحنا لأدوات الهدم بالدخول إلى عقر دورنا وجلسنا - بلا حياء - لنشاهد معهم ما يندى له الجبين وحين قلدنا الغرب في مباذله باسم الحرية الموهومة والتحضر الزائف، وتركنا محاسنه وأفضل ما عنده لأنه في الأصل كان عندنا ولا يزال موجوداً في ديننا الذي تخلفنا عن عظمته وحضارته.

ولم نستح من الناس حين جاهرنا بمعاصينا وخالفنا أوامر ديننا جهرة وبوقاحة حين عملنا ببعضه ولم نعمل ببعضه الآخر.. ولم نستح من الله حين تعاملنا مع ديننا بمكيالين حين يتعامل بعضنا بحياء في وطنه، وحين يركب الطائرة مسافراً يتركه أمانة في المطار إلى حين يعود، فلا يمنعه دين الله، ولا حياء من الناس ولا مروءة من ذاته عن المجاهرة بالمعاصي وفعل القبيح. وهذا سر اختلال نظام المجتمع الإسلامي المعاصر، فالحياء قوام الشخصية المسلمة.

ضمان من فوق سبع سماوات

ليت كل مسلم يقف مع نفسه في شهر شعبان من كل سنة وقفة صادقة وأمينة يحاسب فيها نفسه حساباً دقيقاً.. ليت كل مسلم يقوم في آخر شهر شعبان من كل سنة بجرد أعماله وأفعاله وتمحيص الصالح منها والطالح مما قام به خلال السنة وصدق مع نفسه في معرفة النتيجة لحساب دينه، كما يفعل التجار آخر كل عام في جرد مستودعات بضائعهم وتحديد رؤوس أموالهم ومعرفة أرباحهم وخسائرهم.

ليت كل مسلم يقف مع نفسه ولحساب آخرته ودينه، هذا الموقف قبل قدوم شهر رمضان، شهر الغفران والعبادات، وعرف قدر خسارته أو ربحه.. لاستعد لشهر الغفران أتم الاستعداد، ولَوَضَع لنفسه خطة للعبادات وتعامل مع نفسه بشيء من الحزم والشدة لتعويض ما فاته في شهور السنة، فإذا كان شهر رمضان يعتبر موسماً تجارياً للكسب المادي عند تجار الأطعمة والملبوسات يكسب فيه الخَسران ويعوض فيه ما فاته من الكسب خلال شهور السنة فإن مجال الكسب فيه للدين، وللآخرة أعظم وأكثر.




الكسب للدين في شهر رمضان أكثر ضماناً من الكسب للدنيا، لأن الكسب للآخرة مصحوب بشهادة «ضمان» من رب العالمين



لكل مسلم، ومع هذا الضمان الرباني بالكسب والنجاح والتوفيق، فإن بعض الناس يُفضل اللهاث والركض خلف الكسب الدنيوي غير المضمون وتفضل دنياها على آخرتها في شهر تفتح فيه أبواب السماء للمتاجرين مع الله!

وأعجب من هذا كله من يدخل عليه شهر رمضان ويخرج كما دخل، ولم يكسب فيه لا لدينه ولا لدنياه.. حقاً ليس أعجب من مسلم يدخل عليه شهر الغفران..الشهر الذي تفتح فيه أبواب الجنة ويقترب الله فيه من عباده، ويتيح لهم من فرص الصفح والغفران والعمل الصالح ثم يجد من عباده من لا يحرص على المغفرة، ولا يحرص على الطاعات رغم معرفته بأن شهر المغفرة دخل عليه وهو محمل بركام من الذنوب والخطايا والسيئات!!

شقي ذلك العبد الذي يدخل عليه شهر رمضان ولم يغفر له، لأن ذلك لن يكون من عمل الشيطان، بل من شيطان نفسه، فالشياطين تصفَّد في الأغلال في هذا الشهر الفضيل، فقد جاء في حديث عائشة - رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «**إذا دخل شهر رمضان صفدت الشياطين وفتحت أبواب الجنة وأغلقت أبواب النار**» (متفق عليه).

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقف مذكراً المسلمين في آخر يوم من

شعبان، فعن سلمان الفارسي -رضي الله عنه- قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «**يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيامه تطوعاً، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يزاد رزق المؤمن فيه، من فطر صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء، قالوا: يا رسول الله: ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم فقال: يعطي الله هذا الثواب من فطر صائماً على تمرة أو على شربة أو مذقة من لبن، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار، ومن سقى صائماً سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة**» (رواه ابن خزيمة وصححه البيهقي).

هذا هو عقد الضمان الإلهي يقدمه رسول الله ﷺ عن ربه لهذه الأمة، ضمان بالربح الوفير يقدمه رب العباد، فلينتبه الغافلون عن عقود الآخرة بعقود الدنيا، فليتذكر المشغولون بالإيداع في بنوك الدنيا والمتاجرة في أسهم بنوكها، إن بنوك الرحمن لا تهبط أسعار أسهمها، وإن المتاجرة مع الله لا تخسر، وإن الإيداع في بنوك الآخرة يزيد لهم أضعافاً مضاعفة تفوق ما يحلمون به من إيداعاتهم في بنوك الدنيا.

إنها فرصة العمر لكل مسلم خسر من حساب آخرته لحساب

دنـياه، لكـل مسـلم فـرط في دينه وفي حق نفسه.. فرصة لتعويض ما فـات خـلال سـنة بـل مـا فات خلال سنوات العمر كله.. فرصة لا يضـمن الإنسـان لنفســه أن يعيشــها مـرة أخرى فقد لا يمتد به العمر لرمضـان آخـر.. إنها المغفرة والرحمة والرضوان..إنها الجنة من أوسع الأبـواب يقـول رسـول الله ﷺ : «**إن في الجـنة بابـاً يقـال لـه الريان يدخـل مـنه الصائمون يوم القيامة لا يدخل معهم أحد غيرهم يقال: أين الصائمون فيدخلون منه فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد**».







مَطْلُ الغنيّ ظلمُ

قـد يَغْفِـرُ الله للعبد تقصيره معه تعالى لأنه في ذلك لا يظلم إلا نفسه. أما فيما بين العبد وغيره من العباد فإن الله، يبرأ من فوق سبع سمـاوات مـن المسـاس بها لأن الحق فيها لصاحب الحق ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ (فصلت:٤٦). لـو جـاء الإنسـان إلى الله بمـلء الأرض صـلاة وصياماً ونوافل لما غفرت له عند الله ذنباً اقترفه في حق غيره، ولمـا رفعـت عـنه ديـناً لم يـؤده أو حقـاً لم يعطـه لصاحبه بالنكران أو الغمط أو المماطلة.





إن المرء ليعجب من الذين يتجرأون على الوقوف بين يدي الله يسـتغفرونه وفي ذممهـم حقـوق لم تـؤد لأصحابها وهم قادرون على أدائهـا أو حقوقـاً يعترفـون بهـا ولكـن يضـمرون المطـل فيها، وهم يعـلمون أن أصـحابها أحـوج مـنهم إلـيها أو يحـتالون عـلى حقوق الضـعفاء والفقـراء والمسـاكين مـن الذيـن يعملـون معهم فيستغلون خوفهـم مـن فقـدان وظائفهـم أبشع استغلال، ويخدعون أنفسهم بأن ذلك تجارة وشطارة.

ألا يعـلـم هـذا الـنوع مـن أصـحاب الأموال الكثيرة والنفوس الفقيرة أن هذا ظلم وأن الله حرم الظلم على نفسه، وقال في الحديث القدسـي «**يـا عـبادي: إنـي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم**



محرماً فلا تظالموا» ونفى سبحانه عن نفسه صفة الظلم في عشرات الآيات وأنذر من فوق سبع سماوات بعشرات الآيات أيضاً الذين يظلمون الناس بعذاب الدنيا والآخرة. ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ**﴾ (غافر:٥٢).

لهذا أعجب مما أسمع عن بعض المؤسسات والشركات التي تؤجل دفع رواتب عمالها وصغار موظفيها لعدة شهور بينما يستلم كبار المسؤولين فيها رواتبهم كاملة آخر كل شهر! وأسمع عن بعض التجار ممن أكرمهم الله بعظيم فضله يفترون على موظفيهم أو يبخلون عليهم بما هو حق من حقوقهم فيظلمونهم عند تصفية الحقوق النهائية ويحتالون بكل الوسائل بلا تسامح، ويحاسبونهم على النقير والقطمير لكيلا يأخذ هذا الموظف حقه كاملاً. وقد يستغل هذا النوع من أصحاب النفوس الضعيفة حاجة المسكين للعمل فيتفق معه على العمل بلا عقد مكتوب يوضح الحقوق، ويخشى المحتاج المطالبة بالعقد حتى لا يخسر وظيفته، فإذا أنكره صاحب العمل فيما بعد لا يجد طريقاً يشكوه فيها أو يطالب من خلالها بحق لعدم وجود عقد بينهما، وهذا ظلم حذر الله سبحانه وتعالى منه بقوله: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ**﴾ (إبراهيم ٢٤).

والأصل سواء أن كتب العقد أو لم يكتب فقد جاء في الحديث

الشريف قول الرسول ﷺ: «**المسلمون عند شروطهم**».

أما الذين يقولون: إنهم لا يريدون ظلماً عندما يؤجلون دفع الحقوق أو الرواتب ولا يبطنون غدراً بأصحابها وإنما لأنهم بالفعل لا تتوفر لديهم السيولة الكافية.

ويستمر هذا الوضع لشهور طويلة فإن ذلك ليس عذراً يعتذر به، فهؤلاء الموظفون تنتظرهم في بيوتهم أفواه مفتوحة تريد أن تأكل وأولاد يريدون الذهاب للمدارس لابد أن تدفع رسومها، وإيجار لن يؤجل أجله، فهل كتب على هؤلاء العمال والموظفين تحمل كل هذه الأعباء والصبر على إذاها حتى تستمر المؤسسة أو الشركة في العمل بالتوسع نفسه، وحتى لا تتضرر سمعة صاحبها ومركزه المالي هل يجب على الموظف المسكين أن يدفع الثمن من جوع أسرته ويتعرض للطرد من مسكنه؟





لماذا لا تختصر المؤسسة أو الشركة ويقلص الإنفاق أو تتخذ أي حلول أخرى شريطة عدم المساس برواتب المحتاجين والعاملين من أجلها الذين جف عرقهم عشرات المرات في انتظار قروش معدودة تصرف حال وصولها لمحلات الأغذية والمدارس والإيجار ولفواتير الكهرباء والتلفزيون وربما أيضاً لتسديد الديون.

إن وعد المسلم «حق» يشهد عليه الله الذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور فإن أداه فهو له وإن لم يؤده فهو عليه ﴿ **وَلَا يَزِيدُ**



﴿ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء:٨٢)، ولهذا فعقود المسلمين سواء كتبت أم لم تكتب فهم ملزمون بها، وقد ألزم الله عباده الكتابة في المعاملات المالية بينهم، وما ينطبق على الدين ينطبق على اتفاقات العمل إذ يقول العزيز القدير: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ (البقرة:٢٨٢) وقوله تعالى:﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ﴾ (البقرة:٢٨٢) ثم يحذر سبحانه وتعالى من إهمال الكتابة والشهادة فيقول: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨٢).

فما دام العمل يؤدى لصاحب العمل في موعده فليس من حقه تأخير أجر العامل مهما كانت الأسباب، وعقد يشهد بهذا - سواء كان مكتوباً أو غير مكتوب - ينص ضمنياً على أداء الأجر في موعده، وهو أمر نص عليه ديننا قبل كل القوانين الوضعية «أعطِ الأجير حقه قبل أن يجف عرقه»، وقد وصف الرسول ﷺ المماطلة وتأجيل دفع حقوق الغير بأنها الظلم نفسه حين قال ﷺ : «**مطل الغني ظلم**» (رواه البخاري) فليتق الله الذين يستطيعون الأداء فلا يؤدون. وليتذكر الذين يستشعرون القوة بأموالهم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة ١٦٥].

لو دامت لغيرك..

إذا ما تولى أحد صغار النفوس وأصحاب المعادن الرديئة مسؤولية وجلس على كرسي وأصبح رئيساً على عشرة أو حتى خمسة من الموظفين.. نسي نفسه، فتبختر وتجبر ومشى على الأرض مشية فرعون، واعتقد أنه بذكائه وعبقريته وصل إلى هذا المنصب، وأن من يعمل تحت رئاسته من الناس أقل منه شأناً وأقل ذكاء فيحتقرهم إن لم يكن ظاهراً فبينه وبين نفسه. والصفيق الساذج هو الذي ينم سلوكه وتعامله مع الذين يعملون تحت رئاسته عن سوء خلقه واستصغاره لهم، وغروره بسلطانه عليهم، ويعتقد أنه يتحكم في ترقياتهم وأرزاقهم فيخافونه ويضعف إيمان بعضهم فينافقه ويتزلف إليه ويريق ماء وجهه ناسياً أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.





ولا يعلم هذا النوع من صغار النفوس وأصحاب المعادن غير الأصيلة أن الكراسي دوارة، وهي حقيقة يعلمها كل الناس لكن البعض ينساها إذا ما جلس فوق كرسي دوار، ينسى أن الكرسي لن يتوقف عن الدوران، وأنه في إحدى دوراته سيسقط منه، وينسى الحكمة البالغة التي تقول «لو دامت لغيرك ما وصلت إليك» ويعرف هذا النوع من البشر أنه لم يصل إلى الكرسي بجدارة وعن استحقاق



وإنما قذفت به الظروف أو الحظ أو الوساطة أو سوء الاختيار في أحسن الأحوال.

المهم في الأمر أن الأسباب ليس لها علاقة بقدراته وعبقريته، ومع ذلك تجده يسيء استغلال منصبه، ويخل بأمانة عمله، ويعطل الإنتاج بإشعال الفتن بين الموظفين، وإشغالهم بأنفسهم وبالتوافه من الأمور. وإذا اكتشف أن بينهم من هو أفضل منه وأكثر استحقاقاً وجدارة وإنتاجاً اضطهده ونكل به أو أفسده أو أبعده فيخسر به العمل موظفاً ممتازاً، وما أكثر المؤسسات التي خسرت وما أكثر الدوائر التي فشلت في تحقيق أهدافها التي وضعها لها كبار المسؤولين بسبب هذا النوع الرديء من صغار المسؤولين.

لهذا فإن «حسن الاختيار» أمانة عظيمة، ولا عمل يمكن أن ينجح بدون نظام، لهذا ينبغي إذا سار أكثر من اثنين عليهم اختيار أحدهم أميراً عليهم، كما جاء في الحديث الشريف حتى لا يحدث اختلاف وتضييع المصلحة العامة. وليس شرطا أن يكون المسؤول عن جماعة أعلمهم أو أتقاهم أو أكبرهم سناً، وإنما يجب أن يكون قبل هذا كله أقدرهم على اتخاذ القرار السليم والتنظيم المكين والحسم النزيه العادل. فالإدارة ليست علماً فحسب بل أمانة وموهبة وخبرة وفن.

لهـذا يكون تعيين صاحب العلم الذي يفتقر لمقومات الشخصية القيادية... مضيعة للعلم وخسارة على الإدارة، فما بالنا بالذين ليس لديهـم عـلم ولا موهـبة ولا نفـوس أصـيلة تكـون الخسـارة فـيهم مضـاعفة والكارثـة بهم أعظم؛ لأن تولية واحد من هذا النوع يجعل العمـل يخسـر كـل الذين تولى عليهم. وفي كتابنا المنزل من فوق سبع سمـوات وفي تراثنا الشرعي وتاريخنا الحي عشرات الأمثلة التي تدلل على أهمية وضع المسؤولية في يد قوية أمينة: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص:٢٦).



إنه نصف الإيمان !

من طبيعة البشر أن يكونوا مستعجلين في كل شيء، وما ورد عن استعجال البشر في كثير من آيات القرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة، وليس هناك وصف أبلغ لاستعجال البشر من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ (يونس:١١) وهو معنى عظيم يحدد سرعة عجلة الإنسان على نفسه، وقد وردت آيات عدة في القرآن الكريم على ألسنة الأنبياء لأممهم المستعجلة مثل: ﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ (الأنعام:٥٧) فقد حذر الله عباده جميعاً من «الاستعجال» ذلك لأن استعجال الإنسان لما يظنه خيراً له في ظاهره قد يكون شراً في باطنه، تأمل قوله تعالى: ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (الذاريات:١٤) وقوله: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (الرعد:٦) ويجادلون ربهم فيقول لهم ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ (القيامة:٢٠) ثم يقرر سبحانه وتعالى ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الأنبياء:٣٧)، ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ (الإسراء:١١).

لهذا كان الصبر ذروة سنام الحلم والحكمة والخلق العظيم،وكان الـركن الركين في إيمان الإنسان بالله وبقضائه وقدره في رسالات كل الأنبـياء. فمثلما لا يوجد شيء في حياة الإنسان لا يريد أن يستعجله فإنـه لا يوجـد شـيء في حياة الإنسان لا يحتاج أن يصبر عليه، وأول دروس الصـبر، الصـبر عـلى الـناس في السلوك والمعاملات، وأقساه الصبر على البلاء في النفس والمال والولد.

لقـد وقفت أتأمل آيات الصبر في كتاب الله فلم أجد رب العزة والجـلال يـبالغ في إكـرام أحد مبالغته في إكرام العبد الصبور ووعده بالدرجـات العـلى في الدنـيا والآخـرة، فهـا هـو رب العـالمين يقطـع عـلى نفسـه وعـداً بأحسـن الجـزاء للصـابرين دون أن يحـدد مكانـه، فـيقول: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٩٦).





ويقف الله مع الصابرين في قولـه عز وجل: ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفـال:٤٦) وقد ورد في تفسير ابن كثير (٧/ ٠٨) قول أحـد السـلف عـن هـذه الآية العظيمة: «ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة لأنهم نالوا من الله معية الله».

ولقد ربط الله سبحانه وتعالى الصبر بالإيمان والعمل الصالح، إذ لا صبر حيث لا إيمان، ولا إيمان حيث لا عمل صالح، ولا عمل



صالح دون توكل على الله، كما ترسم معالم الآية الكريمة الجليلة ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (العنكبوت:٥٨-٥٩) فتكون المعادلة الإيمانية إذن: إيمان وعمل صالح وتوكل على الله وحده = صبراً يؤدي إلى الجنة، وهي المعنى الذي يتأكد في هذه الصورة القرآنية الرائعة التي تصور نتيجة الصبر ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الرعد:٢٣-٢٤).

ومن هنا يتأكد معنى أن الله إذا أحب عبده ابتلاه، وطلب منه عدم الاستعجال بل الصبر ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (البقرة: ١٥٥). فلم يبشر الله أحداً من فوق سبع سماوات أكثر من بشارته للصابرين بصلاته عليهم ورحمته ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (البقرة:١٥٥-١٥٧).

وارتباط الصبر بالإيمان وحسن الخلق فضيلة من أعظم فضائل

الإسلام على بني البشر، فعن جابر -رضي الله عنه- قال: قيل يا رسول الله أي الإيمان أفضل: قال «**الصبر والسماحة**» وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسد، ثم رفع صوته وقال: «إلا أنه لا إيمان لمن لا صبر له» وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (الصبر نصف الإيمان والإيمان اليقين كله).

وصدق الشاعر حين قال:

يجري القضاء وفيه الخير نافلة
لمؤمن واثق بالله لا لاه
إن جاءه فرح أو نابه ترح
في الحالتين يقول الحمد لله



فما كان هناك إنسان عجول إلا وكان غير صبور، وما أكثر الإنسان الاستعجال على شيء إلا ندم، لهذا جرى المثل القائل بين الناس «في العجلة الندامة وفي التأني السلامة».





ويؤثرون على أنفسهم ..

في هذا العصر الذي كثرت فيه الخبرات وتنوعت فيه الأرزاق، وأعطى الله الإنسان من أصناف الطعام أضعاف ما أعطاه لعباده في العصور السابقة، ويسر لأبناء هذا العصر ما لم ييسره لغيرهم من وسائل التفنن في كل شيء، ومع ذلك فما ازداد الناس إلا جشعاً، ولم يغنهم الشبع عن طلب المزيد، ولم تقنع بعض النفوس بما في يدها فتعتدي على ما في يد غيرها .. نفوس ظالمة لا ترتوي حتى ولو عبّت من مشارب الدنيا كلها، وجيوب جشعة لا قاع لها حتى ولو صبت فيها كل خزائن الأرض، وبطون جوعى لا تشبع حتى لو امتلأت بأصناف النعم. فالمرء تمتلئ يده وعينه لا تزال تنظر إلى ما في يد غيره. وأناس يبسط الله لهم الرزق ويفيض فلا يجودون به على من هو دونهم.

ماذا تتوقع من هذا النوع من البشر في عالم تجد الإنسان فيه يملك كل شيء؟!

ومع ذلك فهو لا يحب لأخيه أن يملك مثل ما يملك، فالذي يملك قصراً لا يحب لجاره أن يملك مثله، ومن يشتغل بتجارة لا يريد غيره أن يشتغل بما يشتغل به، وقد امتدت نار الغيرة والحسد والأنانية إلى العلم الدنيوي والديني، وتسللت المنافسة غير الشريفة إلى النفوس

لدرجة الإضرار بالغير لا لشيء، وإنما ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾.

ومن هنا ضاعت قيمة خلقية عظيمة في هذا الدين، بل هي من أعظم فضائل هذا الدين في تربية النفس وترويضها، إلا وهي الإيثار، وذلك يوم رفع رسول الله ﷺ شعار «**أحب لأخيك ما تحب لنفسك**» وقال ﷺ «**أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له**» (أخرجه ابن حبان)، وتبارى الصحابة في تطبيق هذا الخلق العظيم حتى أنزل الله قرآناً من فوق سبع سماوات يشيد بهم، فقد نزل برسول الله ﷺ ضيف فلم يجد الرسول ﷺ في بيته ما يعطيه، فدخل عليه رجل من الأنصار فأخذ الضيف إلى بيته، ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمد يده إلى الطعام وكأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: «**لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم**» وأنزل قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩).




قال سهل بن عبد الله التستري: قال موسى عليه السلام: يا رب أرني بعض درجات محمد ﷺ وأمته؟ فقال: يا موسى إنك لن تطيق ذلك، ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي. قال فكشف الله لموسى عن ملكوت



السماوات فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى. فقال موسى: يارب بماذا بلغت به إلى هذه المكانة؟ قال تعالى: بخلق اختصصته به من بينهم وهو «الإيثار». يا موسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته، وبوأته من جنتي حيث يشاء».

ما أعظمها من مكانة. إنه خلق هو بحق ذروة سنام حضارة السلوك والمعاملات.. حضارة الإسلام.. خلق عظيم أحبه رجال وعملوا به، بل تنافسوا عليه فأخذوا به المكانة العالية في الدنيا والآخرة. وليس أدل على ذلك من قصة شهداء اليرموك الذين آثر كل واحد منهم - وهو في النفس الأخير - أخاه على نفسه في شربة ماء حتى ماتوا جميعاً دونها. يروي حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي، ومعي شيء من ماء. فقلت: أسقيك. قال نعم. فإذا بنا نسمع رجلاً آخر يقول: آهٍ. فأشار ابن عمي أن أعطه له. فذهبت إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فلما سمع رجلاً آخر يقول: آهٍ أشار هشام أن انطلق بالماء إليه، فلما وصلته وجدته قد مات، فرجعت إلى هشام فكان قد مات، فذهبت إلى ابن عمي فوجدته قد مات أيضاً. فقد آثر كل منهم الآخر على نفسه.

أي إيثار هذا. أن نهب أعظم ما تتمناه في آخر لحظة لك في

الدنـيا إلى إنسـان آخـر وتموت ظامئاً؟! أي إيمان هذا عاش به هؤلاء الـرجال؟! إيمـان تَرجَموه في سلوك ومعاملات وأخلاق فانتصروا به عـلى الدنـيا كـلها، وأقـاموا بـه أعظـم حضارة على وجه الأرض لم تنطفئ أنوارها إلا بعد أن تخلى المسلمون عن أخلاقها..!







التاريخ الأبيض للأخوة

لا أعتقد أن في هذه الدنيا ما هو أجمل وأعظم من أخوين أو أختين خرجا من بطن أم واحدة وعاشا يجمع بينهما الحب، ويكمل كل منهما الآخر في كل شيء فلا يكبر في نفسٍ أي منهما على أخيه شيء إلا بذله له وآثره به على نفسه، وهذا النوع من الإيثار أعلى مستوى ترتفع به الأخوة؛ لأن الأخ لا بديل له بعد موت الأبوين.

ولقد مر بي في قراءاتي القديمة كلمة رائعة عن جمال الأخوة وقوتها وعظمتها للأديب الرائع الأستاذ حسن محمد كتبي (وزير الحج والأوقاف السعودي الأسبق) - أطال الله عمره - في كتابه «هذه حياتي» الذي شرفني في مقتبل حياتي الأدبية في سن الحادية والعشرين بكتابة مقدمة طبعته الثانية.





كتب الأستاذ حسن كتبي في هذا الكتاب صفحة واحدة يصف فيها محبته لأخيه سامي تجعل الإنسان يشتاق إلى هذه الأخوة العظيمة قال عنه:

«أما أخي سامي فكان صدى لمشاعري ومرآة نفسي، عشنا معاً ولم نفترق لحظة واحدة في طفولتنا، وقد وحدت بين قلبينا جميع أسباب الحياة، ونعمل أي عمل مشتركين كما لو كنا شخصاً واحداً



وقد أمضينا الفترة الأولى من عمرنا على هذه الحال حتى خرجنا إلى الحياة الكادحة العاملة».

ثم يقول الأستاذ حسن: «وفي هذا الميدان تجلت وحدة أرواحنا ومشاعرنا وأصبحت أشعر أن شخصيتي لا تتم إلا به، فقد غلبت روحه على روحي، واتحدت إرادتنا وأفكارنا في الحياة العامة كما كنا في الطفولة ومراحل الدراسة».

ثم كتب أجمل ما قرأت في حب أخ لأخيه وأبلغ في شدة عاطفته وصدقها من أجمل قصائد الشعر يقول: «ولقد أحببته حباً طغى على قلبي حتى غلب على حبي لنفسي، ولست أعرف أي تأثير لإنسان في الحياة يفوق تأثيره علي وسيطرته على مسارب تفكيري وطرائق حسي، وهو في حياتي كالقوة الخفية التي تسيرها على القرب والبعد ولا تستطيع الإفلات منها، ولقد وجدت في إخائه فضل الأخوة وكرامتها وجمالها وقوتها».




وتمنيت وقتها أن لو كان لي أخ في مثل سني لجعلت ما بيني وبينه ما كان بين حسن كتبي وأخيه، فقد كنت أصغر أبناء أبي جميعاً، وفارق السن الكبير يجعلني أقرب ما أكون لأخويَّ كالإبن كالأخ. ثم أدركت مع مرور السنين أن هذه نعمة أخرى أنعمها الله علي، فقد حرمت منذ باكر طفولتي من عطف الأبوة في سن الثالثة فعوضني الله في أخوة أخوين كبيرين كريمين أبوة كاملة لم أحرم فيها من شيء قطُّ



ولله الحمد- إلا من كلمة «أبي» التي لا أذكر أنني قلتها في حياتي قط، ثم اكتمل عوض الله لي حين صرت أسمع هذه الكلمة الرائعة «أبي» تغرد بها أفواه أطفالي فتتفاعل معها كل مشاعري، فكان هذا من تمام نعمة رب العالمين على عبده، هذا ظل ظليل من شجرة الأخوة الوارفة الظلال بالأخوة التي ترتفع إلى درجة الأبوة كما عشتها بنفسي في ظلال أخوين كريمين.

وصدق الشاعر حين قال:

أخاك أخاك إن من لا أخاً له كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح

وقد أظهر الله سبحانه وتعالى المثل الأعلى في منزلة الأخوة وعظمتها وقوتها وأهميتها فيما حدث بين الأخوين موسى وهارون من محبة وإيثار، فقد أحب موسى هارون حباً عظيماً وسأل الله له النبوة حين دعا له ربَّهُ ﴿ **وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا** ﴾ (طه:٢٩-٣٤).

فاستجاب له ربه ﴿ **قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ** ﴾ (القصص:٣٥).

وفي مضرب المثل بكمال الأخوة وقوتها أخرج ابن أبي حاتم

عـن عـروة أن عائشة -رضي الله عنها- قالت: سمعت رجلاً يقول: «إنـي لا أدري أخ في الدنيا كان أنفع لأخيه من موسى حين سأل الله لأخيه هارون النبوة» قالت أم المؤمنين: «صدقت والله».

هـذا هـو الـتاريخ الأبـيض، للأخوة فيه عبرة لكثير من الأخوة الذيـن يـنزغ الشـيطان بيـنهم، يضـرب الله لهـم المـثل من فوق سبع سموات لعلهم يتفكرون.






التاريخ الأسود للأخوَّة!

إنه من العجب العجاب ما يحدث بين إخوة هذه الأيام الذين ينزغ الشيطان بينهم وتفرقهم الدنيا وحطامها، فقد فرقت الدنيا منذ بداية الخليقة بين أول أخوين خلقهما الله وهما هابيل وقابيل، فقتل قابيل هابيل، وتآمر إخوة يوسف على أخيهم حسداً من عند أنفسهم لمكانته عند ربه ثم عند أبيه، وكل هذه أمثلة ضربها الله سبحانه وتعالى لبني البشر، والعجيب ألا يتعظ بها المسلمون وهم يتلون كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أن هابيل كان راعياً فقرّب خير غنمه وأسمنها لله تعالى، وقابيل كان حراثاً فبخل وقرب بعض زرعه فجاءت النار فأكلت الشاة وتركت الزرع، فقال قابيل لأخيه هابيل: أتمشي في الناس وقد علموا أنك قد قربت قرباناً فتقبله الله منك ولم يتقبل قرباني؟ فوالله لأقتلنك ولن تكون خيراً مني، فقال له هابيل: ما ذنبي إنما يتقبل الله من المتقين ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة:٢٨).

أخ تسوِّل له نفسه الأمارة بالسوء الإضرار بأخيه، بل يقتله لعرض من أعراض الدنيا.

أين المسلم الذي يرتفع إلى مستوى تسامح هابيل مع أخيه قابيل على رغم أنه قتله وقال له: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾ وهكذا كان يوسف عليه السلام في تسامحه مع إخوته الذين تآمروا عليه وحاولوا قتله. أكرم الله يوسف بالنجاة من الموت والنجاة من الوقوع في براثن شهوة امرأة العزيز حين أراه البرهان بعد أن همت به وهم بها، ومكن له في الأرض حين ولاه على خزائن مصر جزاءً له لاحتسابه في ابتعاده عن إغراء امرأة العزيز وصبره على السجن وتسامحه وعفوه عن إخوته الذين أساؤوا إليه.

ومن هنا كانت الدعوة لفهم الدرس والعبرة صريحة في قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧﴾ (يوسف: ٧) حيث كان التحذير من عمل الشيطان ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ (يوسف:٥) وكان الدرس العظيم في التسامح: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾ (يوسف:٩٨) وكان أيضا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (يوسف:٩٠) وقد اجتمع في إهاب شخصية يوسف التقوى والصبر معاً فكيف لا يعطيه ربه أجر المحسنين؟!

وهو الذي استجاب لدعوة ربه الذي قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ (الشورى:٤٠) فعفا يوسف عن إخوته وأصلح حالهم طمعاً في أجر المحسنين، والإحسان أعلى مراتب الإيمان.

هـذا هـو الواقـع المؤلم الذي نعيشه فالتاريخ الأسود للأخوة - كمـا ورد في كـتاب الله - يعـود إلى طمـع الـنفس وجشعها وجهلها بأحكـام الله تعـالى وحكمـته في خلـق الكـون والبشـر، لكن الدعوة الإسـلامية الحقيقية تدعونا إلى حب الإخوة والأخوات، وعدم تمكين الشـيطان مـن غـرس بـذور الفتنة بيننا ونشر الخصام والقطيعة وأكل الأمـوال بالـباطل كما يحدث بين الإخوة عند اقتسام المواريث، وهذا هو الدرس الأبيض الذي نخلص به من قصتي هابيل وقابيل ويوسف وإخوته، ولكن لماذا حدث ذلك كله ليعقوب والد يوسف بما أصابه في هذا الابتلاء العظيم؟!

أخـرج إسـحاق بـن راهويـه وابـن أ بـي الدنـيا وابن أبي حاتم والطـبراني والحـاكم والبيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «**كان ليعقوب عليه السـلام أخ فقـال لــه ذات يـوم: يـا يعقـوب ما الذي أذهب بصرك وما الذي قوس ظهرك؟ قال: أما الذي أذهب بصري فالبكاء على يوسف، وأما الذي قوس ظهري فالحزن على ابني بنيامين. فأتاه جبريل فقـال: يـا يعقـوب إن الله يقـرئك السـلام ويقـول لـك: أما تسـتحيي تشـكوني إلى غـيري؟ فقال يعقوب: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) فقـال جـبريل: الله أعـلم بمـا تشـكو يـا يعقـوب.. ثـم قـال يعقـوب: أمـا تـرحم الشـيخ الكبير؟ أذهبت بصري وقوست ظهري فـاردد عـلى ريحانتي أشمه شمة قبل أن أموت ثم اصنع بي ما أردت**

فأتاه جبريل فقال: يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك أبشر وليفرح قلبك، فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك، فاصنع طعاماً للمساكين فإن أحب العباد إلى الله الأنبياء والمساكين. وتدري لِمَ أذهبت بصرك وقوست ظهرك وصنع إخوة يوسف به ما صنعوه؟ إنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئاً. فتعلم يعقوب ذلك الدرس العظيم فكان إذا جاء الغداء بعد ذلك أمر منادياً ينادي: ألا من أراد الغداء من المساكين فليتغد مع يعقوب، وإذا كان صائما نادى من المساكين من يفطر مع يعقوب».







عندما يجعل الله لك جاهاً

وقفت على حديث عظيم المعنى لرسول الله ﷺ يقول فيه «**من رزقه الله مالاً فبذل معروفه، وكف أذاه، فذلك السيد**». وعجبت للمعنى الذي آلت إليه «السيادة» في هذا الوقت حيث حصرها أناس في الاتكال على أنسابهم وأحسابهم وحصرها آخرون في ما يملكون من أموال أو ما يتمتعون به من سلطان وجاه دون بذل حق ذلك المال والسلطان والجاه.

ضاعت القيم وانقلبت الموازين واستبدلت المعايير المعنوية بالمقاييس المادية، فقد كانت «السيادة» الحقيقية عند العرب خلقاً وأدباً ومعاملات، وبعد الإسلام أصبحت أساس الدين كله.




قيل لقيس بن عاصم: بم سدت قومك؟ قال: لم أخاصم أحداً إلا تركت للصلح موضعاً. وقال سعيد بن العاص: ما شاتمت رجلاً مذ كنت رجلاً، لأني لم أشاتم إلا أحد رجلين، إما كريم فأنا أحق أن أجلَّه، وإما لئيم فأنا أولى أن أرفع نفسي عنه.

وقال رجل للأحنف بن قيس: كيف حزت السيادة وما أنت بأشرف قومك بيتاً ولا أصبحهم وجهاً ولا أحسنهم خلقاً؟ فقال: لما تركت من أمر الناس ما لا يعنيني لم ألق منهم ما لا يرضيني.



ويروي الأصمعي أنه بينما كان يطوف بالبيت العتيق ذات ليلة

إذ رأى شاباً متعلقاً بأستار الكعبة، وهو ينشد:

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم
يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا
وأنت يا حي يا قيوم لم تنم
أدعوك ربي حزيناً هائماً قلقاً
فارحم بكائي بحق البيت والحرم
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفه
فمن يجود على العاصين بالكرم؟!

وسقط مغشياً عليه من البكاء فدنا منه الأصمعي فإذا هو زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - فقال له: ما هذا البكاء والجزع يا سيدي وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة! أليس الله تعالى يقول: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ (الأحزاب: ٣٣)؟ فقال: هيهات هيهات يا أصمعي، إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً. أليس الله تعالى يقول: ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ**






﴿أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ (المؤمنون:١٠١-١٠٣).

هذا هو السيد ابن السيد ربيب بيت النبوة أعظم سيادة في الكون يرسم القدوة ويضرب المثل بسيادة العمل الصالح والتقوى ومخافة الله، وهو أوعى الناس وأكثرهم إدراكاً بقول جده محمد ﷺ وتحذيره لهم : «**يا آل محمد لا يأتيني الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم .. إني لا أغني لكم من الله شيئاً .. والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها**».

وأكد هذا المعنى بقوله ﷺ : «**من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه**» فإذا كان رسول الله ﷺ قد وجه هذا التحذير لأصحابه أشرف نسب وأعظم سيادة وهم أهل بيته فكيف بالذين هم من دونهم ويريدون سيادة بأنسابهم وأموالهم وجاههم دون أن يقوموا بحق الله تجاه عباده.



وهكذا لا تستقيم السيادة عند الله إلا بالعمل الصالح وحب الخير للناس والإخلاص في خدمتهم، أما إيثارهم على النفس أو مساواتهم بها فهو أعظم ثمن يدفعه الإنسان ليستحق السيادة ذلك لأن المرء لا يسود حقاً إلا إذا كسب محبة الناس، وأعظم أنواع محبة الناس للعبد هي تلك التي يكتسبها بنية مرضاة الله في عباده. فكما يسأل الله العبد عن المال يسأله عن نسبه وجاهه يقول رسول الله ﷺ : «**إن الله يسأل العبد عن جاهه فيقول له: جعلت لك جاهاً**





فهل نصرت به مظلوماً أو قمعت به ظالماً أو أغثت به مكروباً؟».

وتقف الشفاعة للناس في مقدمة سلوك صاحب السيادة الحقة يدفعها بجاهه وسلطانه، فعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصدقة صدقة اللسان. قيل: وما صدقة اللسان؟ قال: الشفاعة تفك بها الأسير وتحقن بها الدماء وتجر بها المعروف إلى أخيك وتدفع عنه بها كربة**».

أعجب أشد العجب للذين يبتغون السيادة في الناس بالنسب والمال والجاه دون دفع ثمن ذلك للناس خلقاً وتواضعاً وشفاعة ومواساة وبراً ثم يظنون أنهم بذلك أفضل من غيرهم من البشر.

أكاد أسمع صوت رسول الله ﷺ غاضباً عليهم محذراً لهم: «**إن نبيكم واحد، وإن أباكم واحد، وإنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى. ألا هل بلغتُ؟**».

نعم .. صدقت وبلغت يا رسول الله بما قرره الله سبحانه من فوق سبع سموات حين خاطبهم قائلاً: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

وإن ظلماك .. وإن ظلماك ..

تتسع رحمة الله لكل شيء ويتجاوز الرحمن الرحيم عن عباده في كل الذنوب والخطايا إلا في شيئين استثناهما في العديد من الآيات والأحاديث النبوية وهما الشرك بالله وعقوق الوالدين، الأمر الذي يجعل عقوق الوالدين مساوياً للشرك بالله الذي لا يغفره رب العالمين.

ولهذا قرن الله سبحانه وتعالى توحيده وعبادته بالإحسان للوالدين في قوله: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا** ﴾ (الإسراء:٢٣) ثم حدد سبحانه وتعالى طريقة الإحسان إليهما وأسلوب التعامل معهما في الآيتين التاليتين اللتين تحددان منهج تربية الأبناء فقال: ﴿ **إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾** ﴾ (الإسراء:٢٤).

فلا عجب أن يعجب رسول الله ﷺ ممن قرأ هذه الآيات ولم يعمل بها، لمن أدرك والديه أو أحدهما عند الكبر ولم يدخل الجنة، أخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**رَغُمَ أنف رَغُمَ**

أنـف، رَغُمَ أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما عند الكبر ولم يدخل الجـنة» فأمـام طاعـة الوالدين والبر بهما والإحسان إليهما يسقط الله كل الذنوب والخطايا التي يقترفها الابن أو الابنة، وهذا أعظم تكريم مـن عـند الله للأبويـن، وأعظـم تعـبير عـن مكانتـيهما ومنزلتـيهما، وبمقـابل هـذا الجـزاء الـرباني السخي الذي يقدمه رب العالمين، فإنه يطلـب من الأبناء الطاعة المطلقة لهما في كل شيء إلا في معصية الله، ومـع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يغلق باب البر بهما والإحسان إلـيهما في حالـة عصـيان الابـن لهمـا عندما يطلبان منه ما لا يرضي الله بـل يأمـر الله بوصـلهما عـلى نحو ما يتجلى ذلك في قوله تعالى:

﴿ **وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ** ﴾ (لقمان:١٥).

مـا أعدلـك إلهـي رب العالمين، عدلك يسبق غضبك، ورحمتك وسعت كل شيء، حتى العاق لك من الآباء والأمهات من عبادك لم تـرض لهـم العقوق من أبنائهم وتوصي بالإحسان إلى من أساء إليك فتضـرب المـثل الأعـلى في العدل والتسامح لعبادك لعلهم بشيء من ذلك يعملون.

ومـن هـذا نفهم أنه إذا كان لكل طاعة حدود فإن طاعة الأبناء للوالديـن بلا حدود، وحدها الوحيد الذي تقف عنده «الشرك بالله»

فقـط، فقـد فضـل الله طاعـة الوالدين على الجهاد بل اعتبرها جهاداً أعظم من الجهاد. فعن عبد الله بن عمر قال: **جاء رجل يستأذن النبي ﷺ في الجهـاد فقال لـه رسول الله: أحيٌّ والداك؟ قال الرجل: نعم: قـال رسول الله: ففيهما فجاهد»** فلا عجب إذن أن يطلق رسول الله ﷺ بأمـر ربـه حـدود الطاعـة. ففـي الحديث الجليل الذي رواه عبد الـرحمن بـن جـبير الحضرمي عن معاذ بن جبل قال: أوصاني رسول الله ﷺ فقـال: «**لا تعـق والديـك وإن أمـراك أن تخـرج مـن أهلـك ومالك**» أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده، وفي المعنى نفسه عن عبادة بـن الصـامت قال: قال رسول الله ﷺ «**لا تعص والديك وإن أمراك أن تخرج من دنياك فاخرج منها**» (أورده ابن عبد البر في التمهيد).

وفي الحديـث الـذي رواه أبـو سعيد الخدري جاء رجل مهاجرٌ مـن الـيمن فقال له رسول الله ﷺ: «**هل باليمن أبواك؟ قال الرجل: نعم، فقال رسول الله ﷺ: أأذنا لك؟ قال الرجل: لا: فقال له رسول الله ﷺ: ارجع لأبويك فاستأذنهما فإن أذنا لك فبرهما**».




فهـل يجرؤ بعد هذا أحد من الأبناء أو البنات أن يعق والديه أو يعتـبر أن لطاعتهما حدوداً؟ ذلك لأن طاعتهما واجبة حتى فيما يراه الأبـناء خطـأ بيّـنا مـا لم يكن في ذلك معصية لله، وقد يظلم الوالدان ابنهما، وقد يجحفان في حقه وقد يسيئان إليه فلا حق له عليهما ولهما



عليه كل الحق، فتلك أقرب طريق إلى الجنة.

فعن زيد بن أرقم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أصبح ووالداه راضيان أمسى له بابان مفتوحان من الجنة، ومن أصبح وهما ساخطان عليه أصبح له بابان مفتوحان من النار، وإن كان واحد فواحد قيل: يا رسول الله وإن ظلماه؟ قال رسول الله ﷺ وإن ظلماه؟ وإن ظلماه**» (الجامع الكبير للسيوطي).

فهل من عذر بعد ذلك للعاقين والعاقات في عقوقهم لآبائهم وأمهاتهم؟

لقد سد الله سبحانه عليهم كل الطرق دون عقوق الوالدين، وفتح أمامهم أوسع الطرق إلى الجنة في بر الوالدين والإحسان إليهما وحذر من يحيد عن ذلك الطريق بأشنع العقاب في الدنيا قبل الآخرة. فعن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال «**كل الذنوب يؤخر منها ما شاء الله إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإنه يعجله لصاحبه في الدنيا**» (أخرجه الحاكم في المستدرك) وقد جعل الله رضا الوالدين من رضاه.

فهل يرى الأبناء فيما يختلفون فيه مع آبائهم وأمهاتهم من أمور الدنيا ما يستوجب سخط الله عليهم ؟!






عقوق الابن لأبيه

يتعرض الأب لمعصية الأبناء وعقوقهم أكثر مما تتعرض له الأم ذلك لأن طبيعة حياة الرجل أكثر تعقيداً من حياة المرأة، وللرجل ارتباطات تمتد إلى خارج دائرة الأسرة الصغيرة، فالرجل قد يتزوج امرأة أخرى، والرجل قد يخطئ في حق زوجته بطريقة أو بأخرى، وقد يكون الرجل فاسداً في مسلكه وخلقه، وقد يكون مقصراً في حق ربه وأولاده وبيته - وللرجل أسلوبه في الحياة والعمل، قد يكون تاجراً أو حرفياً أو موظفاً، وقد يكون موفقاً في طريقة عمله، وقد لا يكون.

وهذه المواضع جميعاً مداخل تؤكد احتمال زيادة رقعة خلاف الأبناء مع الآباء أكثر من خلافهم مع الأمهات، وبالتالي يدخلون في نار عقوق الأب من أوسع أبوابها ربما وهم لا يعلمون، فهناك من الأبناء من يظن أن عيوب والده مبرر كافٍ له ليعصيه، ويعتقد أن بره بأمه وطاعته لها تحميه من عذاب عقوق الأب والخروج عن طاعته. وهناك أبناء يقفون مع أمهاتهم ضد آبائهم بصرف النظر عن المخطئ عندما تهب رياح الخلاف على بيت الحياة الزوجية فتتكسر النوافذ وربما ينخلع الباب ويحصل الفراق فيهجرونه ويقطعون صلته ولا يرحمون شيبته إن كان عجوزاً، ولا يبرونه إن كان فقيراً محتاجاً عقاباً له على تقصيره في حق أمهم أو خلافه معها أو طلاقه لها أو تزوجه

عليها.

وقد يمتد عقوق الأبناء إلى خارج دائرة الأسرة، ويطول نطاق العمل والحياة العامة إذا كان الأب تاجراً أو صاحب عمل خاص وأتاح لأبنائه من العلم وطيب العيش ما لم يتح له عندما كان في سنهم، فنجد بعض هذا النوع من الأبناء يستكبرون على آبائهم وعلى طرق حياتهم وعلى أساليبهم في العمل باعتبارها قديمة ولا تتمشى مع روح العصر، ويصر هذا النوع الغافل من الأبناء على آرائهم إصراراً قد يؤدي إلى المواجهات العنيفة مع آبائهم، ويحدث شرخاً في علاقتهم بهم وودهم لهم، وقد يحدث التنافر أو الفراق بينهم، ويصل إلى مرحلة العصيان والعقوق فلا يبالي هذا النوع من الأبناء به معتقدين أن تنازلهم عن آرائهم طاعة لآبائهم إضعاف لشخصياتهم وانتقاص من عملهم وفهمهم.



وهذا كله سواء كان وقوف الابن ضد أبيه في محيط الأسرة أو خلافه معه في محيط العمل يدخل في باب العقوق، فللابن طاعة الأب طاعة مطلقة لا تعرف الحدود إلا في معصية الله، والابن غير مكلف بمعاقبة والده فذنوبه أمرها إلى الله وحده، فالأب في الإسلام هو الأب، له حق البر والطاعة في كل شيء إلا الأمر بالمعصية سواء كان مسلماً أو عاصياً أو كافراً، فالله يأمرك أن تصاحبه في الدنيا معروفاً.

وقد أوصى النبي ﷺ بطاعة الأب في كل ما يخص أمور دنياك

حتى إذا أمرك بغير ما تحب وتهوى وخسرت، ففي طاعته مكسبك وفي رضاه عنك توفيق الله. عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تعص والديك وان أمراك أن تخرج من دنياك فاخرج منها**» وعن ابن المنكدر قال: «إذا دعاك أبوك وأنت تصلي فأجب».

ويروى عن أبي غسان الضبي أنه خرج يمشي بظهر الحرة وأبوه يمشي خلفه فلحقه أبو هريرة -رضي الله عنه-، فقال له: من هذا الذي يمشي خلفك؟ قال: أبي، فقال له أبو هريرة: «أخطأت الحق ولم توافق السنة، لا تمش بين يدي أبيك، ولكن امش خلفه أو عن يمينه ولا تدع أحداً يقطع بينك وبينه، ولا تأخذ عرقاً (أي لحماً اختلط بعظم) نظر إليه أبوك، فلعله قد اشتهاه، ولا تحد النظر إلى أبيك، ولا تقعد حتى يقعد، ولا تنم حتى ينام» (أخرجه الطبراني في الأوسط).



وعن العوام قال قلت لمجاهد: ينادي المنادي بالصلاة ويناديني أبي. قال: أجب أباك أولاً».

فأين من هذا الذين يسمعون آباءهم فلا يجيبون؟

وأين من هذا الذين يأمرهم آباؤهم فيعصون؟

لقد قرن الله سبحانه وتعالى عبادته ببر الوالدين، واعتبر طاعة الابن لأبيه في مقدمة الطاعات له سبحانه وتعالى، وطاعته واجبة حتى في ترك أحب ما إليك، فقد روى ابن حبان في صحيحه أن رجلاً أتى أبا الدرداء، فقال: إن أبي لم يزل بي حتى زوجني، وإنه الآن يأمرني بطلاقها. قال: ما أنا الذي آمرك أن تعق والديك أو



تطلق زوجتك ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فحافظ على ذلك الباب إن شئت أو دع**» قال: فأحسب عطاء قال: فطلقها» (سنن الترمذي، كتاب البر).

فالأب على حق وإن أخطأ، والانتصار على الوالدين بمجادلتهما ومحاولة إقناعهما عقوق، قال يزيد بن أبي حبيب «إيجاب الحجة على الوالدين عقوق» فليحذر الأبناء من عقوق آبائهم فعقابه في الدنيا غير مؤجل، وليتجنب الأبناء غضب الآباء فعن مجاهد قال: لا ينبغي للولد أن يدفع يد والده إذا ضربه»، وقال: «دعوة الوالد لا تحجب عن الله عز وجل» فدعوة الوالد على الولد «نار» وعكسها ما سئل به الحسن بن علي عن دعاء الوالد للولد فقال: «نجاة».

وإذا كان الله قد حرم رجوع الرجل عما يتنازل عنه أو يعطيه لغيره فقد أباح للأب الرجوع عما أعطاه لابنه، فعن ابن عمر وابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل لرجل أن يعطي عطية أو يهب هبة فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطي لولده، ومثل الذي يعطي العطية ثم يرجع فيها كمثل الكلب، يأكل، فإذا شبع قاء ثم عاد في قيئه**» (أورده السيوطي في الجامع الكبير)، وفي هذا الحديث تفسير للحديث الذي يقول «**الولد وما يملك لأبيه**». وعن جابر.. قال ﷺ: «**بروا آباءكم تبركم أبناؤكم**».

فهل بعد ذلك للأبناء على آبائهم من سبيل بعد أن أغلق الله ورسوله عليهم كل طرق العقوق؟!



مظلمة الأب وعقوق البنات!!

تعاني المجتمعات المسلمة المعاصرة من ظاهرة عقوق البنات لأبيهن ووقوفهن في صف أمهن إذا ما دب خلاف بين الأب والأم أو إذا تزوج الأب على الأم بأخرى. وأعرف آباء يبيتون قهراً من عقوق بناتهم اللاتي هجرنهم أو قطعن صلتهن بهم، وبعضهن ناصبن آباءهن العداء تطوعاً منهن لصالح أمهاتهن أو استجابة لطلب من هؤلاء الأمهات غير الحكيمات.

وهذه تصرفات تدل على جهل عميق بأحكام الشرع وبما يأمر به الله وبما للأب من حقوق على بناته يجب أن لا تضيع مهما كان الرأي فيه، فالإسلام لا يبيح قطعاً العقوق بالأب لصالح الأم أو إرضاء لها، ولم يبح عقوق الأب بأي حال من الأحوال ولو كان عاصياً أو حتى كافراً، فذنوبه أو كفره أمر يلقى رَبَّهُ به فيجزيه بما عمل. فإذا كان هذا أمر الله بطاعة الأب في غير معصية الله فيما يخص علاقة عبده به فما بالنا بأمر الله سبحانه وتعالى فيما يخص علاقة عبد بعبد آخر، أي علاقة الأب بالأم؟ فليس من حق الأبناء أن ينصبوا من أنفسهم قضاة يحاكمون الأب على تقصيره أو أخطائه في حق أمهم ثم يحكمون عليه وينفذون الحكم بمقاطعته أو الابتعاد عنه والبقاء مع الأم أو في صفها في جميع الأحوال كما تفعل بعض

بنات اليوم.

إن ذلك الحق من حق الله سبحانه وتعالى، ومن حق الجهات القضائية التي تحكم بشرع الله فيما يشجر بين الزوجين ابتداء من الخلافات التافهة داخل البيت ومروراً بالزواج من امرأة أخرى وانتهاء بالطلاق إذا تفاقمت بينهما الأمور. وليس من حق الأم في هذه الحالة .. مهما كان رأيها في زوجها أن تؤلب بناتها على أبيهن، والتي تفعل ذلك ظالمة لنفسها ولزوجها ولبناتها وجاهلة بأمر الله في ذلك أو متجاهلة له.

لم يفرق ديننا قطُّ بين الأب والأم في مسألة العقوق بهما، وفي هذا الأمر وردت عشرات الأحاديث التي تأمر بالبر بهما وتحذر من مغبة معصيتهما وتتحدث عن عقاب من يعقهما إلا إذا أمر أحدهما بما لا يرضي الله، وعقوق أحدهما لصالح الآخر فيه معصية لأمر الله. ومعصية الأب لصالح الأم تحدث لدى البنات أكثر من الأولاد وذلك لشدة عاطفتهن لأمهن ولقربهن منها أكثر من أبيهن ولانتمائهن لجنس واحد فيشعرن بمعاناة أمهن أكثر من شعورهن بمعاناة أبيهن. ومع ذلك فإن التبرؤ من الأب أو هجرانه من الكبائر التي توعد الله أصحابها بِشَر العذاب.




فعن أنس الجهني عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: «**إن لِلَّه تعالى عباداً لا يكلمهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم. قيل مَنْ أولئك**



يـا رسـول الله؟ قـال: متبرئ من والديه، راغب عنهما..» (أخرجه ابن حنبل في مسنده). وجـاء فـيما رواه أبـو هريـرة أن الأربعـة الذيـن لا يدخـلهم الله الجـنة ولا يذيقهـم نعـيمها «**مدمـن الخمر، وآكل الربا، وآكـل مال اليتيم، والعاق لوالديه**» (أورده السيوطي في الجامع الكبير) وقد بلـغ الرسـول ﷺ أمـر ربه في اعتبار عقوق الوالدين من الكبائر، ولم يمـيز الأم عـن الأب بشـيء في مسـألة العقـوق، ولم يجعـل شيئاً أشد خطـراً بعـد الشـرك بالله مثل عقوق الوالدين، فعن عمر -رضي الله عـنه- أن الـنبي ﷺ قـال: «**أرأيتم الزاني والسارق وشارب الخمر ما تقولـون فـيهم؟ قـالوا: الله ورسـوله أعـلم. قال هن فواحش وفيهن عقوبـة ألا أنبـئكم بأكبر الكبائر؟: الإشراك بالله ثم قرأ ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ وعقوق الوالدين ثم قرأ : ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾** (لقمـان:١٤)» (رواه الطـبراني في الكـبير). وقد تراوحت الأحاديث النبوية في تحديد الكبائر بين زيادة ونقصان لكنها اتفقت جميعاً على ذكر «عقوق الوالدين» باعتباره في مقدمة الكبائر.

فـلم يحرص الإسلام على مكانة مخلوق في نفس مخلوق بالشدة الـتي حـرص فـيها وحذر من مخالفتها على مكانة الوالدين في نفوس الأبناء حتى ولو كانا ظالمين لأولادهما، فظلمهما على نفسيهما، ولا يـبرر ذلك للأبناء عصيانهما أو عقوقهما قط، فعن ابن عباس رضي

الله عنهما قال ﷺ : «**من أصبح مطيعاً لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من الجنة، وإن كان واحداً فواحد. ومن أمسى عاصياً لله تعالى في والديه أصبح له بابان مفتوحان من النار، وإن كان واحداً فواحد. قال رجل: وإن ظلماه؟ قال ﷺ وإن ظلماه، وإن ظلماه، وإن ظلماه**» (رواه البيهقي في شعب الإيمان).

لهذا تتفق الأحاديث النبوية بمختلف رواياتها في أن «العاق لوالديه» من الذين يعجل لهم الله سبحانه وتعالى العقوبة في الدنيا. عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وسلم: «**كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات**» (رواه البخاري في الأدب المفرد).

فهل بعد هذا شك في قلوب الذين يفرقون في المعاملة بين الأم والأب أو في قلوب اللواتي يستبحن عقوق الأب طاعة للأم؟! وكما أنه لا يمكن التقرب إلى الله بفعل المعاصي، وطاعة الأم مما يتقرب به إلى الله، فإنه لا يجوز طاعة الأم في عقوق الأب. ولا يستطيع هذا النوع من العاقات أو العاقين لآبائهم الاحتجاج بالحديث النبوي الشهير الذي سئل فيه رسول الله ﷺ عن أحق الناس بحسن الصحبة فقال: أمك ثلاث مرات ثم أبوك مرة واحدة.

فهذا الحديث العظيم الجليل يعلي من مكانة الأم ويعبر عن التقدير لمعاناتها أثناء الحمل والولادة مثلما فصلت في ذلك الآيات

من فوق سبع سماوات.

هـذه مكانـة للأم أمر الله بها تمييزاً لها عن الأب في هذا الجانب لكن لا تخول للأبناء ظلم الأب والتقليل من أهمية البر به والتعرض لسخطه، فإذا كان الأب مقصراً في حق من حقوق الأبناء مثل النفقة، أو إذا كـان سـفيهاً يُخـاف على الأبناء منه أو غير ذلك فهناك حكم الشرع يحتكم إليه فيأمر بما أمر الله. أما إذا كان الأمر يعود إلى خلاف بـين الـزوجين أو زواج الأب بأخـرى وهي الحالة الغالبة التي تجلب اسـتعداء البنات لأبيهن فإن ذلك غاية في الجهل مادام الأب لم يعص الله وإنمـا عصـى أمهـم ومـا بيـنه وبيـنهما فـيه حكـم الله لا حكـم أولادهما. والله المستعان!






للذين يحرصون على حسن الخاتمة ..

إذا أتقن الإنسان عمله كله لم يخف الخاتمة، ذلك لأن الإتقان والإخلاص في كل ما يقوم به الإنسان من عمل يجعلان البداية والوسط والنهاية تستوي عنده، ولا فرق بينها جميعاً. وهذا هو السر في حرص الإسلام على تذكير المسلم دائماً باتقان العمل، فالرسول ﷺ يقول: «**إذا عمل ابن آدم عمله فليتقنه**» وإذا أتقن كل عمل لم يخف الخاتمة.

وقد أوصى رسول الله ﷺ الإمام أن يقول للمصلين عند إقامة كل صلاة «**صل صلاة مودع**» أي صل صلاة من ستكون هذه الصلاة آخر صلاة يصليها ليضمن الإخلاص والصدق والخشوع، كما لو أنه عرف أنه ملاق ربه بعد هذه الصلاة.

وما ينطبق على المسلم في دينه ينطبق عليه في دنياه، ذلك لأن عمل المسلم كله عبادة إذا كان خالصاً لله، والإخلاص لله هو الإخلاص في العمل الذي تؤديه فتتقنه وأنت تشعر أنه لا رقيب عليك إلا الله. ولو أدى كل مسلم عمله وهو تحت ضغط هذا الشعور ما فشل أحد فيما يقوم به، وما قصر مقصر، وما كان هناك خلل، وما احتاجت الأعمال إلى رقباء تصرف لهم الرواتب، وما احتاج الرؤساء إلى تضييع وقتهم في مراقبة عمل الموظفين.

فالمسلم الحق يعرف أن الله مطلع على كل شيء.. مطلع على ما أظهرت وما لم تظهر، لهذا جعل الله سبحانه وتعالى الأعمال بالنيات، لأنه عادل حكيم فلو جعل الأعمال بظواهرها، ما كان هناك عدل فكثير من الأعمال ظاهرها الخير وهي لغير وجه الله. وأعمال أخرى تلتبس ظواهرها أو لا يقدر لها الظهور لسبب من الأسباب وهي خالصة لوجه الله فيثيب الله أصحابها على نواياهم، وهذا كله تصديق لقول الرسول ﷺ «**يبعث الناس على نياتهم**».

ولو حسنت النية في كل عمل لكان كل عمل خاتمة طيبة للساعة التي تم فيها، ولو مات المسلم بعده لكان بالفعل «مسك الختام»، ولو عمل المسلم على هذا المنهج الرباني في إتقان أي عمل يقوم به في ساعة من نهار أو ليل وأخلص النية فيه لكان له في عمله «مسك الختام»، وما خاف إنسان بعد ذلك الخاتمة وسوء العاقبة، وما احتاج بعض الناس لسنوات أو أيام تمتد بها أعمارهم ليحسنوا فيها الختام.





وحرص المسلم على حسن العمل الذي يقوم به، سواء كان ذلك بينه وبين ربه أو بينه وبين الناس، مدعاة لتوفيق الله في الخاتمة، وهذا الحرص أيضاً يبعده عن الوقوع في المزلق الخطر الذي حذر منه نبي هذه الأمة في أكثر من حديث شريف، أشهرها ما رواه أبو هريرة

أن رسول الله ﷺ قال «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**».

وفي هذا الحديث العظيم تشجيع للمسلم على حسن العمل، ولو كان عمله السابق كله يفضي إلى النار، وتحذير للمسلم الذي يعمل العمل الطيب من الانزلاق إلى طريق النار، ودعوته للحرص على «مسك الختام» و«حسن الختام» فلا يأخذه الغرور بما قام به من قبل من أعمال طيبات فإنه قد لا تشفع له إذا ساء عمله في خاتمته.

ومن أعجب ما مر بي من قصص سوء الخاتمة ما يروى عن رجل التزم مسجداً للأذان والصلاة، وعليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة، فرقى يوماً المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني ذمي، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها وترك الأذان، ونزل إليها ودخل الدار فقالت له: ماذا تريد؟ فقال: أنت أريد. قالت: لماذا؟ قال: لقد أخذت بمجامع قلبي. قالت: لا أجيبك إلى ريبة، قال: أتزوجك. قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يقبل زواجي منك. قال: أتنصر من أجلك. قالت: إن أردت أفعل. فتنصر ليتزوجها، وأقام معهم في الدار وفي اليوم نفسه صعد إلى السطح لأمر ما فسقط منه فمات فكان سوء خاتمته خسران الدنيا







والآخرة.

لهذا وجب على المسلم أن يدعو الله دائماً أن يرزقه الإخلاص في النية بكل عمل، وأن يهديه إلى حسن الخاتمة، وألا يفتنه في دينه ودنياه. يقول الله تعالى مقرراً هذه الحقيقة.. حقيقة تحذير المسلم من الفتنة ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ (الأنفال: ٢٤)، قال مجاهد: المعنى يحول بين المرء وعقله حتى لا يدري ما يصنع. وقالت أم المؤمنين عائشة كان النبي ﷺ يكثر من القول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقلت يا رسول الله: إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فهل تخشى؟ قال: وما يؤمنني يا عائشة وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الجبار إذا أراد أن يقلب قلب عبده قلبه؟**».

هذه خشية رسول الله أعظم خلق الله وهذا دعاؤه. أفلا يخاف المسلمون من بعده من سوء الختام؟

وليقل كل مسلم اللهم إنا نسألك الإتقان والتوفيق في كل عمل، ونسألك الحسن فيه، فإن كان آخر الأعمال فاجعله مسك الختام، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

** ** **



الفهـــرس

* * *